



روايات مصرية للجيب

زهور

80

# ليس من أجلى



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

# - ١ -

( منـــال ) ..

اعذرينى إذا كنت لا أعرف ماذا أكتب إليكِ ، واغفرى لى اضطراب أفكارى ..

.......

لقد ترددتُ كثيرًا فى كتابـة هذا الخطاب ، وعندما أمسكت القلم لأبدأ الكتابة ترددت أكثر ، فقد واجهتنى مشكلة ..

كيف أبدؤه ؟ وأى صفة أسبق بها اسمك ؟

هل أقول عزيزتــى ؟ حبيبتــى ؟ زوجتــى ؟ أم ... ضحيتى ؟

.........

أعتقد أن أيًا منها لن يرضيـك ، بـل قد يدفعك لتمزيق خطابى . هذا إذا لم تمزقيه قبل فتحه ..

ولكن مهلًا .. إنكِ لن تفعلى ذلك .. فأنت لا تعلمين شيئًا بعد ..

منـال ... دائمًا ما كنتِ تعاتبيننى على صمتــى ، وعلى أنكِ لا تعرفين شيئًا عنى ...

هأنذا أبدأ بإخبارك بما تريدين .. بل وربما بما لاتريدين كذلك ..

لعلكِ تتعجليننى لأحكى لك وقد نفد صبرك .. لديكِ حق ، ولكنى أعطى نفسى فرصة للتفكير فيما سأقوله لكِ ، وأرتبه فى عقلى ، وفى الوقت ذاته لا أريد التوقف عن الكتابة حتى لا يسقط من يدى القلم ...

سأبدأ من قبل أن أعرفك أو تعرفينى ، منذ كنت طفلاً .. بل ومن قبل أن أولد .

قد تبدو لكِ هذه البداية عجيبة ، ولا صلة لها بالموضوع ، لكن - فقط - اصبرى واسمعينى ..

سأحكى لكِ عن البداية الحقيقية لقصتنا أنا وأنت .. فاتركينى أسرد دفاعى .

* * *

طارت أمى من الفرحة عندما علمت بحملها ، وكيف لا ؟! طفل يأتى بعد عشر سنوات من زواج - بأبى - كاد أن يتحطم لعجزها عن إعطاء زوجها ما يريد .. ثمرة زواجه منها .. خليفة له فى الحياة .. زينة الحياة التى لايود أن يُحرم منها ...





وعلى العكس من أمى ، لم يكن أبى ليفرح بهذا الخبر ..

كيف يفرح وقد كان يستعد للزواج مرة أخرى ؟ بل إنه كان شبه متأكد من أن أمى تعلم ذلك ..

لقد أخبرته أنها لن تمانع لو تزوج ، أما هو فكان يقول فى نفسه :

- إنه لا يهتم كثيرًا لممانعتها ، وإنه لا يحتاج لإذن منها ليتزوج ، لكنه لم يخبرها بذلك ..

وظل أبى لسنين طويلة لايفكر فى أن يتزوج ، ليس لأنه يخاف على شعور أمى ، أو لأنه يعشقها ويحبها ، ولكن لأن الأمر لم يكن يناسبه فى ذلك الوقت ، لقد كان متجهًا بكل قوته وجهده وتفكيره فى اتجاه واحد .. محاربة الفقر .. برغم أنه لم يكن فقيرًا فقرًا مدقعًا .

وبرغم أنه كان يُعدّ من الطبقة الوسطى .. ومستورًا - كما يقولون - فقد كان يود لنفسه مكانة أخرى ووضعًا آخر .

وحارب أبى وانتصر .. حصل على كل ما يريد . لم يكن ينقصه سوى البنين ليكون له « المال والبنون » ،

ولا مانع من زوجة ذات مكانة وثروة لا بأس بهما لتعضد نجاحه ..

وجاء حمل أمى ليحطم كل شىء ، ولكن لماذا ؟

إنه يستطيع أن ينفذ ما يريد ، وقرر أن ينفذه دون تأخير - فما كان ليسمح لهذا الأمر أن يؤخر مشروعاته - ودون أن ينتظر حتى تضع أمى حملها .. تضعنى .

وفى بداية الأمر أوهمها أنه سعيد بحملها ، ولكنه سيذهب فى رحلة عمل تستغرق عدة شهور ، ويخاف تركها وحدها ، وأنها لا بد أن تسافر لأمها فى البلد ، حتى تكتمل شهور حملها على خير ، وتجد من يرعاها .

قاومت ورفضت ، فقد أرادت أن تبقى فى منزلها .. ولكنه أصرّ على رأيه متحججًا بخوفه عليها ، فماذا ستفعل وحدها لو فاجأتها آلام المخاض وهو غائب ؟

واستسلمت أمى كعادتها .

وسافر أبى ليتزوج ، وسافرت أمى لتضعنى ...

أكاد أشعر بأنى عاصرت هذا اليوم من بدايته ، وأنى أدركت حتى قبل أن أخرج من بطن أمى أن هناك كارثة بانتظارى ...

كانت أمى تصرخ من الألم ، وأمها تجلس أمامها ، لا ظلال لأى قلق على وجهها ، حتى ليكاد من يراها يظنها على خلاف مع أبى ، الذى كان يقضى شهور العسل الأولى من زواجه الميمون .



وظلت أمى تصرخ وأمها لا تطرف لها عين .. ومستمرة فى تنظيف البيت .. ولا يتملكك العجب ، فما كانت تهذى به الشابة الحامل من أن الألم يمزقها ، أو أنها ستموت من الألم الذى يجيء على دفعات ، لم يكن يمثل للمرأة المجربة ، والتى أنجبت ستة أبناء أى شىء .



فهكذا كانت هى ، وكانت بين الفينة والفينة تقول لأمى : هكذا البكرية ، لا تقلقى .

وكلما علا صراخ أمى تنهرها أمها .. لئلا تفضحهم !!

ظلت الآلام تتجمع على أمى من بداية النهار حتى الرابعة صباحًا ، وكاد الفجر أن يبزغ عندما أطلقت صرخة رهيبة ، خيل للجميع أنها زلزلت أرجاء المنزل ، بل والقرية كلها ، وسقطت مغشيًا عليها ..

ولم يعد هناك مفرٌ من استدعاء الداية التى رفضت تمامًا التدخل ، أو محاولة أى شىء مع أمى ، سوى

محاولة إفاقتها ، ونصحت بضرورة استدعاء الطبيب من الوحدة الصحية .

ولم تكن الوحدة لحسن الحظ بعيدة ..

وأسرعوا لاستدعاء الطبيب .. الذى جاء متأففًا لإيقاظه فى تلك الساعة المتأخرة ، ومضى يتمتم ويزمجر ويسبّ - وهو يبدأ الكشف - هؤلاء الأطفال الذين لا يحلو لهم الظهور إلا فى تلك الساعات السيئة ، وكأنهم يرغبون فى إزعاج الأطباء عن قصد ، والكيد لهم وللأسرة جميعًا .. ليعلنوا عن قدومهم بأكبر ضجة ممكنة .

إلا أنه سرعان ما تغلّب على همهمته ، وركّز اهتمامه فيما يفعل ..

وبينما هو يقيس نبض الجنين ارتفعت نبضاته شخصيًا ، لتطن فى أذنه مؤكدة أن الحالة متأخرة ؛ فلقد اختل نبض الجنين ، وبدأت المياه التى تحيطه فى التسرب . كان لابد من إجراء جراحى ..

ولكن لا يمكنه ذلك فى هذا البيت الريفى ، ولا حتى فى الوحدة الصحية غير المجهزة . كان لابد من نقلها وفورًا إلى المستشفى المركزى ؛ فحتى



لو توافرت الأدوات والأجهزة فهو نفسه لن يجرؤ على إجراء مثل تلك الجراحة ، وهو غير متخصص فيها ، ولم يقم بها مرة واحدة ، فلم يكن سوى طبيب امتياز أوقع به حظه العاثر فى تلك القرية .

أخبر أهل المريضة بخطورة الموقف ، وأنها قد تفقد حياتها .

ولم يكن هناك حل سوى استدعاء الإسعاف ، وكان هذا هو أسهل جزء فى الموضوع ، فقد استدعوا عربة الإسعاف بالهاتف من مكان قريب ، ولكن المشكلة كانت فى المحافظة على حياة الأم والجنين فى انتظار سيارة الإسعاف ..



وبدأت عملية الولادة برغم أنف الطبيب ، ظهرت رأس الطفل ، ولم يعد هناك مفر من محاولة جذبه بالجفت ..

قام الطبيب بمجهود خرافى وأنقذ الجنين ، وجاءت سيارة الإسعاف ؛ لتأخذ الأم وهى فى غيبوبة ، والجنين معها فى محاولة لإنقاذ الأمور .

دخلت الأم حجرة العمليات وهى تصارع الموت ، والنزيف الشديد الذى تمكن الأطباء من إيقافه بصعوبة ..

وبعد أن فقدت الأم الكثير جدًا من الدماء .. لم يكن هناك مفرّ من استئصال الرحم فى عملية عاجلة ..

حملت الجدة ( مسعدة ) حفيدها الصغير بين يديها ، وهى تهدهده بحركات رتيبة لا تكاد تقصدها ، وهى تسير ذهابًا وإيابًا أمام حجرة العمليات . أمسكت الطفل وهى تتمنى لو كانت ابنتها بخير والطفل هو المصاب .. تمنت لو كانت استجابت لرغبة ابنتها وذهبت بها إلى المستشفى ، بمجرد أن هاجمتها الآلام ..

وكادت أن تصرخ قائلة :

ـ لو كنت ذهبت بها إلى المستشفى من البداية ..



ثم عادت تستعيذ بالله ، وأخذت تتمتم بالأدعية والآيات القرآنية .

لم يكن بيدها أى شىء ، ولكنها كانت تعلم أن ابنتها بين يدى الله ، فأخذت تدعو الله قائلة :

ـ « اللهم إنا لا نسألك ردّ القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه » ..

ومرت عدة ساعات ، وما زالت ( فاطمة ) ـ أمى ـ فى حجرة العمليات ، وكادت جدتى تُجن ويطيش صوابها ، وقد خيل لها أن تلك الساعات أيامٌ طويلة



مرت ، وأخذوا الرضيع من بين يديها المتصلبتين عليه ، دون أن تشعر أو تقاوم .

أخذوه وهو يبكى ويصرخ ، وكأنه يعلم ما حدث لأمه ، أو كأنه يحمل نفسه وزر ما حدث ...

وعندما خرجت ( فاطمة ) من حجرة العمليات ، كانت لا تزال تحت تأثير المخدر ، وربما الغيبوبة ..

لم يكن أحد واثقًا من شىء ...

وعندما رفعت جدتى عينيها للطبيب تسأله ، بعد أن راقبت ابنتها الملقاة فى إحدى الحجرات ، دون أن تصدر أى حركة وكأنها قد ماتت .

قال لها :

ـ الأمل فى الله كبير .. بمجرد أن تفيق أخبرونى .

لم تكن كلماته مطمئنة ، ولكنها كانت أحسن من لا شىء ، قشة يتعلق بها غريق لم يعتقد بأن هناك أى أمل ولو ضئيل للنجاة ..

وأفاقت أمى دون أجهزة متطورة للإنعاش .

أفاقت بقوة إرادتها ورغبتها فى الحياة من أجلى ، وقبل ذلك كله إرادة الله ..

تحسست صدرها المتحجر ، ورفعت نظرها لأمها

وحركت لسانها على شفتيها الجافتين . فهمت أمها
كلتا الإشارتين فى سعادة ، ولكنها لم تستجب ،
ممنوع عنها الشرب بأمر الطبيب ، أما إحضار الطفل
للأم المجهدة فكان أمرًا عسيرًا ، إنه يرضع صناعيًا ..
وعلى أى حال فهو يعيش وبخير صحة .
لكن حركات الأم الملتاعة على السرير ، وهى تكاد
لاتستطيع التحدث بِرغم أنها لم تنقطع عن الهلوسة
وهى فى غيبوبتها - جعلت أمها تتحرك لتبحث عن
طبيب لتسأله ، ولم تكن بالمهمة اليسيرة فى مثل هذا
الوقت من الليل ..
دخلت الأم حجرة الطبيب فلم تجد أحدًا .. ووجدت
بابًا جانبيًا .. ترددت كثيرًا قبل أن تطرقه ..
قام الطبيب متثاقلاً ، وفتح الباب وبيده كتاب ضخم ..
ابتلعت الأم ريقها بصعوبة ، قبل أن تشرح له فى
كلمات مهتزة أن ابنتها أفاقت ..
لم يبدُ على الطبيب أنه يعرف من ابنتها ،
أو ما حالتها ، أو ما معنى أنها أفاقت ، ودار بخلده أنها
إحدى حالات الولادة التسع التى أجراها اليوم ..
خلع المنظار عن عينيه المجهدتين ، وتركه يسقط



على صدره متعلقًا بالسلسلة الأنيقة التى تحيط عنقه ،
وتبع الأم مستسلمًا ، وهى تتمتم بعبارات مفككة
ومتتالية ، تدعو له أم عليه لا يدرى ، وهى تتكلم
بلهجة ريفية قحة ، بحروف مهترئة ، حيث كانت
العجوز فاقدة لأكثر أسنانها ..
أشارت الأم إلى ابنتها التى كانت مغلقة العينين .
نظر الطبيب إلى الأم فى غضب ، فهزت ذراع ابنتها
لتفيق محاولةً الدفاع عن نفسها ، فتحت (فاطمة)
عينيها بسرعة شديدة ، ولعقت بلسانها الجاف طرفى
شفتيها قبل أن تقول :
- ضناية .. أين هو ... وهى تنقل نظرها بين أمها
والطبيب ..
أجابتها أمها متبرمة :
- بخير ، جاءك ولد ، وهو بخير ..
كشف الطبيب على المريضة كشفًا روتينيًا ، وسأل
أمها عن حالتها ، فأخبرته ما تعلم .. وسألته عن
الماء .. فأخبرها أنه لا مانع أن تتناول القليل ، وسألها
أن تحضر الرضيع ؛ حتى تهدأ المريضة ، ولترضعه كذلك ،
فقد كان صدرها يؤلمها بسبب امتلائه باللبن ..

شربت قطرات قليلة ، وأرضعت طفلها حتى خف الحمل عن صدرها ، وارتوى هو ثم نام ، تأملت ملامحه فى حب ، وأسعدها أن حصلت لزوجها على بغيته .. وريثه الصبى ..

امتلأت نفسها بالسعادة والفخر ، ثم استغرقت فى النوم ، وبين يديها طفلها دون أن تشعر ...

أفاقت فجأة بعد فترة خيل إليها أنها قصيرة ، تحسست المكان فلم تجد وليدها ، ونظرت حولها فوجدت أربع مريضات يشاركنها الحجرة ، بحثت عن أمها فوجدتها ممددة فى الأرض بجانب السرير .

أنزلت يدها بوهن شديد لتهز أمها ، ولكنها عادت فأشفقت عليها ، وبعد دقائق مرت الممرضة وأيقظت أمها ، وهى تخبرها أن تقوم بسرعة لأن الطبيب سيمر ..

انتفضت العجوز وانتصبت قائمة برشاقة ، برغم سنها المتقدمة ، وبرغم استغراقها فى النوم منذ لحظات قليلة .. فقد أمضت معظم الليل ساهرة على ابنتها .

جاء الطبيب وكتب لها أمرًا بالخروج .. لا يهم إن كانت لم تبرأ بعد ، فالإمكانات لا تسمح باستضافتها أكثر من هذا ، وعليها إخلاء مكانها لمريضة أخرى فى حالة أسوأ .





أسرعت الجدة ( مسعدة ) تبلغ أهله بالخبر السعيد ، لقد أنجبت ( رضا ) كما اتفقوا على تسميته ، أو بمعنى آخر ، كما أخبرها أن تسمى المولود فتى كان أو فتاة ..

كانت الفرحة تزغرد فى نفسها ، فقد نصر الله ابنتها على أصهارها وجاءت بالولد .. ولكنها لم تنجُ من نظرات الشماتة .. لقد أرادوا تحطيمها . أخبروها - فلابد لها أن تعلم - بأنه لن يأتِ ليرى ابنه .

عادت إلى ابنتها المريضة ، وعلى كتفيها أحمال من الهمّ ، نفضتها قبل أن تدخل إليها ، وهى ترسم على وجهها المكدود ابتسامة حملت من الحزن أضعاف ما حملته من السعادة الزائفة ..

ماذا ستقول لها ؟

نكست رأسها ، ولكن ابنتها أخبرتها فى هدوء ، - والدموع تتساقط من عينيها ، وهى مستلقية دون نحيب - أنها تعرف . حيث قالت لها :

- أنا عرفت يا أمى ، جاءوا وأخبرونى ، لم ينتظروا حتى يمر ( الأربعين ) .

جلست العجوز فى الأرض متهالكة ، حيث كانت تقف ، وأكملت ابنتها مشفقة عليها :

- لاتحزنى يا أمى ، إنه نصيبى ، وأنا راضية به ، يكفينى ( رضا ) وأبقاكِ الله لنا أنتِ وإخوتى .

خرج صوت جدتى متحشرجًا وهى ترد عليها :

- سنرفع عليه قضية و ..

قاطعتها ( فاطمة ) فى وهن قائلة :

- لاأريد شيئًا منه ، أغنانى الله عنه وعن نقوده ..

حاولت أمها أن تعترض ، لكنها قاطعتها مرة أخرى والدموع لا تزال تتساقط من عينيها :

- لو أن حملى ثقيل عليكم .. سأعمل وأنفق على نفسى وعلى ابنى ، بمجرد أن يأخذ الله بيدى .

- خير ربنا كثير يا بنتى ، وأنتِ وابنك فى عينىَّ ، لكنى أودع الدنيا ..

- مَنْ يعرف عمره يا أمى ؟ الأعمار بيد الله .

- ونعم بالله ، لكنى أشعر بأننى أعيش أواخر أيامى فى الدنيا ، وأريد الاطمئنان عليكِ قبل أن أموت .

- من يعرف نصيبه من الدنيا ؟ كنت أعتقد أن الولد هو ماينقصنى ، وهو من سيحمينى من غدر الدنيا .. لكن الحمد لله على كل شىء .. كان سيتركنى فى أى الأحوال ، لكن الآن معى ولد أستند إليه ويأخذ بيدى .





- أبقاكِ الله له يا بنتى وأبقاه لكِ .

- وأبقاكِ الله لنا يا أمى .

واستجاب الله لدعوة أمى .. ولكن لم يستجب لدعوة جدتى ، واختطف الموت أمى ، قبل أن تنجح أمها فى إقناعها بالزواج مرة أخرى . ماتت وحملتنى قبل أن تموت وصية طوقت بها عنقى ، هى ألا أطلق زوجتى ، وألا أتزوج عليها أبدًا ، وأن أذهب لأبى لأحيا فى كنفه ، فليس لى غيره من بعدها هى وجدتى ، وأنها سامحته على كل ما فعله ؛ لأنه أعطاها إياى ..

وعيت هذه الكلمات وحفرت فى ذهنى برغم صغرى .

ما زلت أذكر أمى وهى تقول لى هذا الكلام ، وكأن ما حدث كان بالأمس القريب .

وعشت مع جدتى حتى خط شاربى فى وجهى ..

ودخلت المدرسة الثانوية ، ولكنها لم تعش لتشهد نجاحى ودخولى الجامعة ، وقبل أن تموت حملتنى هى الأخرى وصية وطوقًا آخر فى رقبتى ، هو أن أنجح وأدخل الجامعة ، وألتفت لدراستى ، وألا أطلب من أى شخص أى شىء ، حتى أخوالى الذين لم يسألوا عن أمى ، أو عن جدتى ، أو عنى طوال هذه الفترة ، إلا إذا

احتاجوا شيئًا ، وطلبت منى ألا أذهب لأبى قبل أن أقف على قدمى .

كُنت أعرف أنها تود أن تمنعنى من زيارة أبى لو أنها تملك .. لكنها لم تُرد أن تجعلنى أعصى أمى ولا أحقق وصيتها .

لم تسامح جدتى أبى أبدًا ، فقد كانت مثلى ، تعرف أنه من قتل أمى فى ريعان شبابها .

كانت جدتى مستعدة لهذا اليوم منذ زمن بعيد ، كانت تُعد عدتها لتترك الحياة ، ولم تكن لتأسف على ذلك ، ولم يكن وراءها ما يقلقها سوى .. الأمانة التى تركتها أمى فى عنقها ، بعد أن رحلت قبلها ، وأدمت قلبها .

تركت لى جدتى من المال الكثير . تركت ما يكفينى حتى أنهى دراستى ، وأبدأ حياتى العملية وأستقر ، هذا إذا أحسنت التدبير .. وهذا ما كُنت أنوى فعله .

* * *





## - ٢ -

ورحلت إلى ( الإسكندرية ) ، فضلتها على ( القاهرة ) المزدحمة ، ووضعت أولى خطواتى فى سلم الحياة ، على درجات مدرج كلية الحقوق ..

وأحسست بخطواتى بطيئة مترددة ، وسط كمّ الطلاب الهائل الذى يسير مسرعًا ، وهو يعرف طريقه ؛ حتى طلاب السنة الأولى بدوا فى عينى يعرفون كل شىء ، وأنا وحدى لا أعرف أى شىء .

ومرت السنة الأولى ، وأنا أنطوى فى ركن قصىّ ، لا أكلم أحدًا ولا أعرف أحدًا ..

الجميع كوّن صداقات مع شباب وفتيات إلا أنا .

انتهى الشتاء ، ولا أدرى إلى أين أذهب فى الصيف ..

فكرت فى أن أؤجر حجرة ، وأقضى الصيف فى ( الإسكندرية ) ، فلا يعقل أن أعود لقريتى ، ولم يعد لى فيها شىء . فقد باعوا كل شىء .. حتى البيت ..

لم يعد لى ما أعود إليه ، ولم أكن ممن يبكون على الأطلال ، أو ممن ينظرون وراءهم ..

كانت أمامى حياة جديدة ، وخطوات واسعة لابد لى من أن أخطوها ..

وقرّرت أن أشترى شقة فى ( الإسكندرية ) ..

ولهذا كان أول ما فعلته أن سكنت فى حجرة صغيرة فى ( بانسيون ) ، وركزت اهتمامى فى إيجاد شقة لقطة كما يقولون ، وكان أمامى الصيف بأكمله ، بل والشتاء أيضًا إذا أردت ، وظللت أبحث حتى قاربت الإجازة على الانتهاء ، ومعها كل أمل فى إيجاد الشقة .. حتى برزت لى ـ لا أدرى من أين ـ شقة بها كل ما أحلم به من مواصفات . فرصة لا تتكرر ولا تحتاج لأى تفكير . ثلاث حجرات وصالة ، قريبة من البحر ، فى منطقة هادئة ولها مستقبل ، فى (ميامى) على شارع رئيسى وبسعر أكثر من مُغْرٍ .

وأخذتها ، ولحسن الحظ لم يكن فى الأمر خدعة ، إنها فقط إحدى الفرص التى لا تطرق بابك سوى مرة واحدة .. ولكن برغم السعر المغرى ، التهم ثمن الشقة جزءًا لا يستهان به من مدخراتى ، وكان من المستحيل تقريبًا أن أفكر فى تأثيثها الآن .



وقد توصلت لهذه الفكرة الرائعة :

ـ لماذا لا أستغل الشقة حتى أتخرج ، وأؤجرها للطلاب المغتربين ؟!

عزيزتى ( منال ) .. ترى هل سئمت ؟ أم أنكِ مشوقة لسماع قصتى ، التى لم أخبرك بها قبلاً ؟! أو لعلك تحبرَين على السطور لتعرفى النهاية وتصلِى لنا .. وتعرفى ما فعلت ..

لا تستبقى السطور ، انتظرى واقرئى ببطء .. لتعذرينى ..

المهم .. نعود للفكرة الرائعة التى تملكتنى .. أو هكذا ظننتها فى ذلك الحين . وكان لا بد لى أن أستثمر مبلغًا لا بأس به فى التأثيث . أسرّة ، ودواليب ، وأشياء وجب علىّ أن أشتريها ؛ لأبيعها فى نهاية الأمر ، وكان هذا يعنى نفاد مدخراتى تقريبًا .

ولكنه مشروع مضمون العواقب والمكسب أيضًا . واكتشفت أنى لن أستطيع شراء أكثر من ثلاثة أسرّة بفرشها ، ودولاب واحد ، ومنضدة واحدة ، لم يكن هناك حل سوى انتظار الطالبيْن اللذيْن سيسكُنان معى ،

وأن أستخدم النقود التى سيُعطيانى إياها كإيجار ، فى دفع الرسوم ، وثمن الكتب ، وكل المصروفات الأخرى ..

كان علىّ أن أختار الطالبين بدقة . لابد أن يكونا متفوقين دراسيًا ، وكذلك ألا يكونا من طلبة السنة الأولى . يجب أن يكونا معتادين على الاغتراب ، فأنا لن أتحمل أن أرعى شابين لا يعرفان الاعتماد على النفس ، ولم يعتادا الغياب عن أسرتهما .

ومضى أسبوعان من العام الدراسى ، ولم أستطع التوصل لشابين ، أىّ شابين ، لا أن أنتقيهما على هواى ، ثم جاء ( مدحت ) بناء على إعلان صغير بلوحة الإعلانات ، على باب المدرج والمخابرة مع الفراش .

وقد جاء متأخرًا على المدينة الجامعية ، ويريد أن يسكن ، ربما لأنى كُنت قد فقدت الأمل فى أن يأتى طالب ـ أى طالب ـ فقد قبلت به دون سؤال ، وقَبِل هو أيضًا ؛ لأنه كان يسافر ويأتى كل يومين ، ولا يستطيع الانتظام .. و ( مدحت ) كان طالبًا بكلية التجارة فى السنة الأولى ، ولسوء حظه وحسن حظى



تأخر فى التقديم ؛ لأنه لم يكن يعرف أنه فى التجارة ، وظن أنه فى الحقوق .

وتنازلت عن أول شروطى ، وقبلت به برغم أنه لايزال فى السنة الأولى . لايعرف شيئًا عن أى شىء ، وأخذته لمشاهدة الشقة الواسعة ، بقطع الأثاث الهزيلة ..

وأعجبه كل شىء ، الشارع والسلالم والشقة وحافة ( البلكونة ) ، التى لو مد جسده قليلاً من عندها يرى البحر أو يكاد .. وأعجبه السرير والدولاب .. وقبل ذلك كله أعجبته أنا .. صاحب الشقة المغترب مثله ..

سألنى عن قريتى .. أبى .. أمى .. أهلى .. سألنى ، وتكلم هو عن نفسه ، دون أن ينتظر إجابتى ، ودون أن أفكر فى أن أعطيه إياها ..

أكاد أكون لأول مرة منذ وطئت قدمى ( الإسكندرية ) .. منذ سنة تقريبًا أسمع لأحد يتكلم كل هذا الكلام ، بل أكاد أقول : إنى لأول مرة فى حياتى أتحدث مع أحد وأسمعه يتكلم بكل هذا الكلام .

فما إن شببت حتى كُنت أعيش مع جدتى وحدها ، وكانت جدتى قليلة الكلام ، تكاد تمر أيام دون أن نتبادل حديثًا .. أكثر من :

- قم كل ..

- حاضر يا جدتى .

نظرت منبهرًا لسيل كلامه . لم يكد ينتبه إلى أننى لم أنطق ، ونظر لى هو منبهرًا بطالب الحقوق ، الذى فى السنة الثانية .

دخلت ( أمنية ) حياته ، كانت تمثل له أكثر مما تمثل لى ..

وسألنى أخيرًا عن نفسى ، وتهربت منه ، وأخبرته أن لا شىء فى حياتى يستحق أن أحكى له عنه ، لم يُرزق أبى بعجل فسماه باسمى ، ولا كنت أختلس النظر لـ ( ليلى ) وهى تروح وتغدو ، ولم تحملنى أمى بتلال من الطعام الريفى وأنا قادم لـ ( الإسكندرية ) لأول مرة .. عاش حياة لم أحيها ، لكنه تصور أنى أكثر خبرة منه .. لا أدرى من أين جاءه هذا الخاطر .

لم نختلف على مسألة الأجرة ، وضعت مبلغًا



معقولاً ولم يجادلنى فيه ، لقد ساقته الأقدار ؛ ليرى الإعلان فى كلية الحقوق . ثم يأتى ليشاركنى السكن . لم يبق سوى شخص آخر ..

وأخبرنى ( مدحت ) عن ( فهمى ) وهو طالب فى السنة الثالثة بالطب . من بلدتهم ، وأنه لم يستطع الحفاظ على بقائه فى المدينة الجامعية ، خاصة بعد تقديره السيىء ..

لم أكن متعجلاً لأقبل شخص آخر بدون دراسة . فها هى ذى مصاريف الدراسة يؤمنها لى إيجار ( مدحت ) .



شخص آخر مثل ( مدحت ) من نفس القرية يحمل أحلامًا وردية . يحيا على سجيته .. لا أدرى ..

ولكن ما سبب تأخره الدراسى ؟ أمهلت نفسى ثلاثة أيام ، ثم لا بأس فى أن أرى ( فهمى ) هذا ..

فالمصاريف أكثر من أن يكفيها إيجار ( مدحت ) خاصة عندما تبدأ الكتب الدراسية فى النزول .

فى أول يوم لـ ( مدحت ) .. ظل يحدثنى إلى ما بعد منتصف الليل ، وهو يقول :

- إن النوم جافاه من شدة الإثارة ، بينما ظل

يتثائب ، وكاد أن ينكب على وجهه ، وأنا ـ ربما لأول مرَة ـ أرقت .. شددت عليه ليذهب لينام فمحاضراته فى الصباح الباكر .

ترى أتتساءلين يا ( منال ) .. أين أنتِ من كل هذا ؟! وقتها لم أكن أفكر فىَ أى فتاة ، ولم يخطر ببالى الأمر من أساسه ، ولكن حديث ( مدحت ) ذكرنى بأمى ..

هذه السيدة البسيطة المستسلمة ، بجلستها المنكورة بجانب الفرن . دائمًا كنتِ حزينةً يا أمى ، حتى عندما كنتِ تضمينى فرحة بنجاحى ، كُنتِ تبتسمين ابتسامة حزينة . كأنها خارجة من تلال الأحزان . آه .. كم كُنتِ جميلة يا أمى ، عيناك المتسعتان ، ووجهك الصغير ، شفتاك ، أسنانك ، شعرك العسلى الطويل المجدول على ظهرك ، ولون عينيك الذى يماثل لون شعرك .. وبشرتك الخمرية .. حتى حزنك لم يأخذ مِن جمالك ، بل كلله بمسحة ملائكية .

صحوت فجأة .. لا أدرى متى نمت .. نسيت أن أبدل ملابسى أو ألتحف غطائى .. فى ميعادى دائمًا أستيقظ .. أيقظت ( مدحت ) وارتديت ملابسى ..



ثم عدت أوقظه ، وأخبره أنى لن أنتظره . إن ميعادى متأخر عنه ، لكنى لا أحب زحام المواصلات .. أخذ وقتًا فى ارتداء ملابسه .. بينما جهزت نفسى فى دقائق .. لا أخرج دون قطعتى حلوى ..

هكذا أنا عندما أعلم أن أمامى يومًا حافلاً ، فلن آكل أى شىء حتى أعود .

شعرت بأن ( مدحت ) يحتاج لما هو أكثر من ذلك .. ركبنا معًا الحافلة ، لم تكن مزدحمة جدًا ، ولم تكن ـ أيضًا ـ مريحة .

تعلقت عينا ( مدحت ) بالبحر .. بدأ يحدثنى عن الدراسة .. الدكاترة .. مبهورًا بكل هذا ..

لم أكن مثله عندما أتيت لأول مرة ، كُنت منزويًا متهيبًا الأمر ، لكنه لم يبهرنى مثله ..

أتعرفين يا ( منال ) .. لقد بعثت فىَّ حماسةُ هذا الشاب إحساسًا جديدًا لم أعهده ولم أخبُره من قبل ..

أشعرنى بأنى عجوز بجانبه .. إن السنة التى تفرق بيننا ليست عامًا ٣٦٥ يومًا .. بل هى أكثر بكثير ، ليست كسائر الأعوام التى تمر على البشر ..

أكاد أقول : إنه هو بهرنى ببساطته وانطلاقه ، بمرحه ، بسعادته بكل شىء .. كل شىء فيه ..

وشعرت بأنه سيؤثر علىّ ، سيأخذ من صرامتى ليبدل بها بساطة ومرح .

انشغلت باقى اليوم بسؤال ( مدحت ) عن أبى وأمى وعائلتى ، برغم أنى تهربت من الإجابة ، وبرغم أنه لم يلح علىّ ..

شغلنى بسؤاله عن أبى .. وقلما انشغلت بالتفكير فى أبى ..

تعلمت ألا أفكر فيه منذ فترة طويلة .

فى عنقى وصية أمى كى أذهب إليه ، وكذلك كلمات جدتى ، وهى تخلط كلماتها الريفية تسبه ، تصمه بالجحود والنذالة وغيرهما ...

تنصحنى ألا أذهب إليه .. سامحينى يا أمى ؛ لأنى لم أنفذ وصيتك بعد ، سامحينى يا حبيبة ، لقد سامحته هو برغم ما فعله ، ألا تسامحينى لأنى لا أستطيع مسامحته ؟!

فى عقلى تتهاوى كلمات أمى :



– أبوك وليس لك غيره ، اذهب إليه .. الدم لن يصبح ماءً أبدًا ، والظفر لا يخرج من اللحم ..

تتهاوى كلماتها الرقيقة أمام صرخات جدتى .. تحول الدم إلى ماء .

وخرج الظفر من اللحم ..

لم يسأل عنك ، لا هو ولا أى شخص آخر من أهله ..

أذهب إليه ؟! ماذا أقول له ؟! :

– أنا ابنك الذى لم تسأل عنه ، الذى لم ترده لمجيئه فى الوقت غير المناسب ؟ لكنك بتصميمك لم تسمح له باعتراض مشروعاتك ! وعدت أتناسى الأمر .. وأبعده عن تفكيرى ..

جاء ( فهمى ) ليقابلنى .. كان على عكس ( مدحت ) هادئًا قليل الكلام ، خجولاً جدًا .. لم أستطع إلا أن أقبله لأكثر من سبب ، ربما كان أقواها أنها رغبة ( مدحت ) ! ولم أشعر بـ ( فهمى ) لهدوئه وبساطته ، واعتماده على نفسه فى كل شىء .. كان معتادًا على حياة المغتربين ، وعلى كليته ، حتى فى الأكل كان يعتمد على الطعام فى الخارج ..

فى المرات القليلة التى كان يشاركنا إعداد الطعام والأكل ، كان يأكل ببطء شديد وكأنه يلوك الطعام فى فمه وحسب ..

لم أكن أعلق فقد كان برغم هدوئه وبطئه مبتسمًا ، مهذبًا ومجتهدًا ، وأعجبنى إلى حد كبير .

أما ( مدحت ) فكان يعلق على كل شىء .. على شهية ( فهمى ) الضعيفة ، على بطئه فى الأكل ، كان يضحكنى على الرغم منى ، ولم يكن ( فهمى ) يضيق به أبدًا .. ( مدحت ) كانت شهيته قوية ، وأعجبنى هذا منه .. أنا نفسى كانت شهيتى لا بأس بها ، خاصة إذا كان ( مدحت ) يأكل معى .

وانتهت السنة الدراسية .. كانت امتحاناتى تنتهى بعد ( مدحت ) بأيام ، ومع ذلك انتظرنى .. لم يسرع ليطمئنهم فى البلد .

انتظر ليطمئن علىّ واستحلفنى أن أطمئنه على النتيجة بأسرع وقت ، وودعته كأنى أودع قطعة من نفسى ..

عاتبنى لرفضى الذهاب معه للبلد ولو يومين ..

أخبرته أنى منشغل ولست مثله ، فينتظرنى تدريب



فى مكتب المحاماة من ثانى يوم بعد انتهاء الدراسة .

والحقيقة أنى خفت .. فزعت من ارتباطى به أكثر من ذلك ، من ارتباطى بقريته التى لم أرها ، بأبيه الذى ليس أبى ، بأمه ، بـ ( ليلى ) ، لقد أحببتهم جميعًا أكثر مما يتصور ..

وكلما فكّرت بمنزلنا فى البلد .. المنزل الخاوى .. وأخوالى وأهل أبى .. ازداد تعلقى ببيت ( مدحت ) كما أتصوره ، وخوفى من أن أذهب واشعر بأنى طفل محروم فى بيت الحلوى .. بل .. طفل يتيم فى وسط عائلة بالمعنى الحقيقى لها ..



ضعفت وفزعت من ضعفى هذا .. وانتظرت السنة القادمة من لحظة ترك ( مدحت ) لى ..

كنت مشغولاً فى التدريب ، ودراسة ( فهمى ) التى لا تنتهى فى شهور الصيف تشغله هى الأخرى ، فلا نكاد نتقابل ، وشغل ( مدحت ) حيزًا كبيرًا من تفكيرى .. أوحشنى .. افتقدته كما لم أفتقد أحدًا من قبل ، وتمنيت أن أذهب لأراه ، لكنى لم أمتلك الشجاعة الكافية .

وتراسلنا أنا و( مدحت ) ، وظهرت النتيجة ونجحنا ..

أعتقد أنى فى هذه الأيام .. وخاصة عندما جاء ( مدحت ) ليستكمل الدراسة .. كُنت فى ذروة فرحتى أكثر من أى وقت آخر عشته ..

عذرًا يا ( منال ) فالفرحة بعد ذلك لم تأتنى سوى ناقصة .

كُنا سعداء ، أو بمعنى آخر كان ( مدحت ) سعيدًا ، وأنا كُنت سعيدًا بسعادته ..

وفجأة مرض ( مدحت ) .. كيف لم أنتبه لفقدانه شهيته ووزنه رويدًا رويدًا ؟ كيف لم أنتبه لذلك فى حينه ؟!

قلقت عليه ، وذهبت معه ليفحصه الطبيب ، الذى قام بعمل أشعات وتحاليل ، ونصحه بالعودة للقرية عندما علم باغترابه .. نصحه أن يعود حتى تظهر نتيجة التحاليل ..

كُنت أود لو يبقى معى أرعاه ، ولكنها كانت أنانية منى أن أفعل ..

أقلقتنى لهجة الطبيب ونظراته ، لكنى لم أملك سوى أن أدعو الله ألا يكون هناك سبب لقلقى .



وودعت ( مدحت ) بكلمات لا أدرى هل كنت أضحك بها على نفسى أم عليه ؟

ومن كنت أخدع ؟

لقد استعرت مرحه لدقائق .. شددت على يده ، وأخبرته أن تدليل الوالدة أوحشه ، وكلها دكرين بط وفطيرتين وعسل وقشطة ، ويعود كما كان ..

أسنده ( فهمى ) وأخذه ومضى .. لم أستطع أن أذهب معه ..

كيف سأواجه أعين الحاج والحاجة عندما يسألانى عما به ؟



وعاد ( مدحت ) بعد ذلك ، ومعه الحاج ( محمد ) والده .. بقيا عندى حتى أنهى ( مدحت ) التحاليل والأشعة ، وراقبته يذوى أمامى .. راقبت المرض يسرق أيامه .. صحته .. جسده .. ولكن ليس روحه المرحة .

فالوجه الأبيض الذى فرت الدماء منه .. هذا الوجه الذى كان يضج بالحيوية والسعادة يومًا ما .. فقد ملامحه .. لونه .. فقد كل شىء إلا الابتسامة ، فما زالت الابتسامة تزينه برغم كل شىء .. وددت

لو أنى كنت مكانه .. لو أنى أنا المريض وهو السليم .

نعم من داخل قلبى تمنيت لو يأخذ الله من صحتى ، ليعطيه ليتقوى ، ومن أيام عمرى ، ليعيش ، شعرت بأنه لو مات فسأموت وراءه حزنًا عليه .

وانتهى كل شىء .. رفع الأطباء أيديهم قائلين :

- إنه لا أمل إلا فى الله ( سبحانه وتعالى ) ..

وأن الطب يعجز عن شفائه .. لم أتخيل أنه ما زال فى عصرنا هذا أمراض ميئوس منها .. لا شفاء لها .. لا يملك الطب إلا أن يعلن فشله أمامها .

عاد ( مدحت ) مع الحاج إلى البلد راضين بقضاء الله ( سبحانه وتعالى ) وقدره .

عندما اقترب ميعاد الامتحانات فكرت ، كيف سيترك الدراسة والمذاكرة ، ولماذا لا يأتى ليمتحن ؟ وأشياء أخرى كثيرة ، أهمها أنى أردت أن أراه .. لم أستطع التركيز فى أى شىء سواه .

* * *





## - ٣ -

استقبلتنى القرية .. كل شىء كما وصفه .. الساقية ، الحقول ، الأطفال ، الشوارع ، البحر .. البيوت ، الأشجار ...

ولكن كل هذا كان حزينًا .. كان ينقصه شىء ما .. ينقصه هو .. ( مدحت ) ..

نعم .. لم يكن هناك بمرحه ونشاطه ، ليحول بكلماته ما أراه إلى واقع أعيشه ، إلى هواء أتنفسه ..

لم أرَ ما حولى كما كُنت أراه عندما كان يحكى لى عن كل هذا ..

كانت عيونه ترينى من خلالها خبايا وأسرار هذا الجمال ..

أول مرّة آتى للقرية ، آتيها وفى عينى دموع تحجب عنى الرؤية ، تجعلنى أسير على غير هُدَى فى دروب حفظتها من كثرة ما سمعته عنها .. فى أماكن عشقتها من قبل أن أراها ..

بيته كما وصفه ، واسع .. أبيض .. مهيب ..

لكن ليس بهيجًا .. شعرت بأن الجدران حزينة عليه ، تنعى شبابه الغض .. أهل المنزل ليسوا كما وصفهم .. الحزن أفقدهم الجمال الذى تخيلته فيهم .

أحسست بحزن يفوق حزنى على أمى ، فلم أكن لأفقه شيئًا وقتها .. لم أفهم ما عناه مرضها .. وأكثر مما حزنت على جدتى ، فقد انتظرتُ دائمًا يومها الأخير ، كما كانت تنتظره هى من قبل أن أولد .. تقبلت موتها كما تقبلت هيئتها المتشحة بالسواد دائمًا .. صمتها .. التجاعيد الكثيرة على وجهها .. خطواتها البطيئة المتمهلة ..

لقد كانت فى طريقها للنهاية ، أما هو .. إنه فى أوج شبابه .. إنه فى طريقه للبدء ..

لم أتصور أن كل هذه الحيوية والنشاط يمكن أن يذبلا .. كل هذا الإقبال على الحياة يمكن أن يُدبر ويولى .

وتذوقت الفشل لأول مرة فى حياتى .. لاتتعجبى .. فحياتى البائسة لم تنجح فى أن تحنى ظهرى .. أو أن تُبكينى .. لكن ( مدحت ) .. لم أتخيل أنى أحبه بهذا القدر ..



بقى فى القرية ، فضل هو ووالده أن يبقى بينهم بدلاً من أن يسافر وراء شهادة لا طائل منها .

شعرت وأنا أترك القرية فى هذا اليوم ، أنى أترك ورائى جزءًا من نفسى .. وددت لو أبقى بجانبه .. أن أقول لهم إن الدراسة لاتهمنى أنا أيضًا .. فقط .. فقط ابقونى بجانبه .. اتركونى أعش معه .. لكنى لم أجرؤ ..

كنت قد جهزت كلامًا كثيرًا لأقنعه وأقنعهم بأهمية أن يُكمل دراسته ..

لكن الكلمات وقفت فى حلقى .. أى دراسة تلك ؟ وما أهميتها ؟ إنه ليس مثلى .. ليس فى حاجة لإثبات شىء لنفسه أو لمن حوله ..

إنه يحبهُم وهم يُحبونه .. فلماذا يضيع أيامًا ثمينة لن تعوض ، جريًا وراء ورقة قد لايستطيع حتى فى النهاية أن يحصل عليها ؟

تركته على وعد أن أعود لأزوره .. أو على الأقل لأحضر زفافه على ( ليلى ) ..

نعم يا ( منال ) لم يستطع شبح الموت أن يسرق منه حلمه ، بل قرّبه إليه بأسرع مما يتصور ..

لم ينجح المرض فى أن يسرق الحب من قلبه ، أو من قلوب من حوله ..

لعلك تتساءلين يا ( منال ) :

ـ أين أنتِ من كل هذا ؟ أين كنتِ أنتِ من حياتى ؟

كُنتِ أنت الوجه الآخر لحياتى الحافلة .. الخاوية التى لم تعنِ شيئًا سوى الآلام حتى رأيتك .. ولاحظتك مرات ومرات ..

كُنت أتدرب فى مكتب المحاماة كعادتى فى أيام الدراسة .. أتردد عليه فى غير أوقات المحاضرات .

وطوال الصيف أقضيه أعمل .. ودخلت مع الأستاذ ( خيرى ) وعرّفك إيانا وعرّفنا إياك على أساس أنك ستتدربين معنا .

ولم يكن الأمر ليعنى سوى طالبة أخرى تتدرب ، لكن شيئًا ما لفتنى إليكِ ، ليس بقوة ، ولكن ببطء وعمق ، مرة بعد مرة ..

ثم جاء خطاب ( مدحت ) بميعاد الفرحِ ، وذهبت ..

آه يا ( منال ) .. كم كان زفافه جميلًا وسعيدًا ..

بدا وكأنه غير مريض ، بل وكأنه لم يمرض أبدًا .



مازالت ترن فى أذنى زغاريد والدته .. أتى بـ ( ليلى ) لتسلّم علىّ برغم التقاليد ..

وجاءت تتعثر فى فستانها الطويل ، ووجهها متجه للأرض .

رفعت وجهها للحظة .. وفكّرت ، كمْ هى جميلة وسعيدة ، وكم هى محظوظة به ..

ولكن ترى هل كانت تعلم ؟ حتى لو كانت ، لم تكن لترفض أن تتزوجه .

حسدته على تلك السعادة ، وعلى قربه ممن حوله ، على حبى له أكثر من نفسى .. فرحت حتى كدت أنسى حزنى عليه .

كلهم تمنوا العقبى لى ، ولا أدرى لِمَ خطرتِ أنتِ ببالى يا ( منال ) دون كل النساء ، لأول مرة أفكّر فى امرأة غير أمى .

خطرتِ ببالى ، وعدت بعدها لأراك بعين مختلفة ..

هل شعرتِ بهذا يا ( منال ) ؟ هل وصلك إحساسى ؟

هل كنتِ تبادلينى شعورى ؟ كُنت كتومًا كعهدى دائمًا .. وكُنت صبورًا أنتظر الوقت المناسب .. وأترك الأمر لوقته ..

عدت للدراسة وشغلنى الليسانس عن ( مدحت ) .. ثم أرسل لى لأحضر ( سبوع ) ( رضا ) .

سماه على اسمى ، لأول مرة أحب اسمى الذى اختاره أبى ، ربما حتى لا يتعب نفسه فى اختيار اسم ولد واسم بنت .

اسم يناسب كل الظروف .. لأول مرة أشعر بأنه ذو قيمة ، خاصة لأنى كُنت أعلم أنه يود تسميته على اسم أبيه ، وأن أباه كان يريد هذا ، لكنه فرح بحفيده وبى وقال :

ـ إن ( مدحت ) أسماه باسم عمه ، وباسم ابنه الذى لم ينجبه .



أتذكرين يا ( منال ) عندما أخبرتنى أنكِ تحملين طفلى ؟ يومها قلتِ ( مدحت ) ، واستغربتِ اختيارى لِمَ ( مدحت ) ؟

لم أخبرك سوى أنى أحب الاسم ، لم تعرفى شيئًا أبدًا .. لم أخبرك أنه كان عهدًا قطعته على نفسى ، وأنا أحمل ( رضا ) الرضيع بين يدى يوم سبوعه .

لعلى لو أخبرتك يومها لما صدقتنى ، أظنك لم تتصورى أن لى صديقًا يومًا من الأيام ، لكِ حق



يا ( منال ) ، فلم ترىَ لى أصدقاء ، وأنا لم أحكِ لكِ عن ( مدحت ) .. لكن ( مدحت ) ليس مجرد حكاية أرويها لك ..

إنه إنسان يحيا فى داخلى .

يوم سبوع ( رضا ) الصغير كانوا جميعًا سعداء وكأنهم نسوا المرض ، أو ربما المرض نسيهم ..

كُنت أشعر بأنى وحدى أمسك أنفاسى كلما تحرك خوفًا عليه .. كلما رأيته فكرت :

ـ كم بقى له فى هذه الدنيا ؟

سنون .. شهور .. أم أيام .. كلما فكَرت فى ذلك انقبض قلبى ، برغم أنى كنت أعرف أن مجرّد استمراره على قيد الحياة كل هذه الفترة هو معجزة من عند الله ( سبحانه وتعالى ) .. تضرب بكلام الأطباء عرض الحائط ، لكنه كان يحيا كخيال شفاف .. كان يذوى رويدًا رويدًا ..

يقلل من الكلام والأكل .. لكننا لم نتمن له الموت ليريحه الله من آلامه .. بل كنا أكثر أنانية من ذلك ، تمنينا أن يعيش ليهبنا الكثير ، بعضًا من صبره وتقواه وحكمته .

ترى ، أهى الدنيا التى كانت تُمسك به أم نحن ؟!! أنا وأبوه وأمه وزوجته ، أم أن إرادة الله كانت أن يخرج من الدنيا بلا ذنوب ؟

ولكن هل كان لمثله ذنوب ؟

وعدت لدوامة الدراسة ، أراسل ( مدحت ) ويراسلنى .. ثم جاءنى هذا الخطاب ، وأحسست بنذير الخطر ، منذ أسبوع وعينى اليسرى ترف ، نذير شؤم .

وجاءتنى .. كُنت فى ذروة إحباطى .. أكاد لا أرى أمامى .. حزينًا كما لم أحزن من قبل .. وجاءت تكلمنى ..

لم أفهم فى البداية ما تقول ، فسألتها أن تعيده بتهذيب ؟ ولكن دون اهتمام .. سألتنى عن اسمى .. سؤال غريب من فتاة جميلة ، لم ألحظ جمالها لأول وهلة ، كُنت منشغلاً .. ولكن إياكِ والغيرة يا ( منال ) ، فسرعان ما سأخبرك عن هذه الفتاة الأنيقة ، التى دلت نظرتى الخاطفة لمظهرها على ذوق رفيع ، وإمكانيات مادية مرتفعة ..

أما عيناها فكانتا تحملان شقاوة وجرأة وبراءة الدنيا بأجمعها ..



ولكن حالتى المعنوية المنخفضة جعلتنى متبرمًا بكل هذا ..

إنها سنتى الرابعة ، وأكاد أُنهى دراستى ، ولم يوجه لى أى شخص كلامًا ، وبخاصة فتاة .. لم يكن أى حديث يزيد على سؤالى عن مكان مدرج ، أو اسم دكتور ، أو أى شىء من هذا القبيل .

لأعد إلىّ أنا والفتاة .. يبدو أن أفكارى أخذتنى بعيدًا عنها ، فظنتنى لم أسمع ، فعادت تسألنى ولكن بصوت مرتفع هذه المرة :

ـ لو سمحت أليس اسمك ( رضا محمود سيد عياد ) ؟

أجبتها ببرود وبلهجتى الفجة :

ـ بلى .. أية خدمة أقدمها لكِ .. فقالت :

ـ أعرفك بنفسى ( سهام محمود سيد عياد ) .

نظرت إليها فى بلاهة ، ثم رفعت كتفى وتساءلت :

ـ وماذا يعنى هذا ؟

ـ أليست مصادفة غريبة ؟ كُنت أقرأ فى الأسماء واكتشفت اسمك .

ما زلت لا أفهم .

ـ أعتقد أننا إخوة .

قالتها ببساطة شديدة :

ـ وماذا بعد ؟!

هكذا أجبتها متسائلا .. بصراحة شديدة لم أكن لأحفل فى هذه اللحظة لو كان لى دستة كاملة من الإخوة والأخوات .

جامد القلب ، هكذا ستظنيننى يا ( منال ) .. هى أيضًا لا بد أنها فكرت فى هذا .. ولكن ليس فقط لانشغالى بأمر ( مدحت ) ، إنما لأنى ـ بكل بساطة ـ لا أهتم ..

فالأخوة ليست مجرد اشتراك فى أب وأم ، أو أب فقط ، أو أم فقط .. ماذا تعنى ( سهام ) هذه لى أكثر من أى شخص آخر ؟ ماذا أعرف عنها أو تعرف عنى ؟ ماذا يُربطنى بها ؟ رابطة الدم ؟ أى دم هذا ؟

يقولون إن الدم لا يصبح ماء .. لعلك تقولين هذا فى عقلك الآن ، بل أظن ( سهام ) قالته فى أثناء كلامها .. ولكن لا أومن بهذا .

فالدم أصبح ماء من زمن بعيد ، بل أصبح أقل من هذا ، فالماء ثمين ومنه الحياة .. أظن أن رابطة الدم



بينى وبين أبى وأبنائه تلاشت ، أصبحت لا شىء ، لا تستحق أن أقول ماء أو ترابًا حتى ..

على أية حال لم أصارح ( سهام ) بذلك .. بدت لى فتاة صغيرة رقيقة ، لديها أفكار وردية عن الحياة .. ومن أنا لأصدمها ، أو أحاول تغيير أفكارها ..

المهم أعدت سؤالها :

ـ أية خدمة أستطيع أن أقدمها لكِ ؟

وتلعثمت ، لم تدرِ ماذا تقول .. أى هراء هذا الذى قلته ، أىّ خدمة أقدمها لكِ ؟ أى سخف هذا ؟

ـ آسف .



اعتذرت لها .

ـ لماذا ؟

ـ لم أدر ماذا أقول .

ـ يظهر أنى أنا المتطفلة .

ثم أكملت موضحة :

ـ أنا عرفت أن أبى .. لديه ابن .. ثم رأيت الاسم .. دائمًا ما كنت أتمنى أخًا كبيرًا .

ـ أليس لكِ إخوة آخرون ؟

سألتها متلطفًا بلا اهتمام حقيقى ، فقط لأشفقت عليها .

- أخ واحد .. ولكنه صغير جدًا .
- وفى أى كلية تدرسين ؟
- آداب قسم فرنسى السنة الأولى .

لم أعرف كيف أكمل الحديث .. وسادنا صمت متوتر قطعته هى :

- عن إذنك عندى محاضرة .

ثم مدت يدها تسلم علىّ .. فابتسمت لها على الرغم منى ، وأنا أصافحها :

- أرجو أن أراكِ مرة ثانية .

نظرت لى للحظة كأنها لتسبر أغوارى ..

لا تدرى ، أمجرد كلمة مجاملة ، أو أنى أريد ذلك فعلاً ..

لكنها لم تكن لتعرف أبدًا .. لأنى أنا ذاتى لم أعرف أى الأمرين كنت أفكر فيه .

لم تشغل (سهام) تفكيرى ، كنت أفكر فى (مدحت) ، كان هو الأهم .. كنت أريد زيارته والاطمئنان عليه .. كان الخطاب مقبضًا ومؤلمًا برغم بساطته .

فتحت الخطاب لأقرأه للمرة الرابعة أو الخامسة .. لا أدرى .. تبينت فى الخط المهتز فى أوله خط (مدحت) ، وفى الخط الآخر خط ( ليلى ) ..





لابد أنها من أكملت له كتابة الخطاب .

عزيزى ( رضا ) ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أوحشتنى جدًا .. جدًا .. متى ستأتى لتزورنا ؟ وكيف حال الدراسة ؟ ما هذا الذى كتبته فى خطابك الأخير ؟ كف عن القلق علىّ .. أنا الآن فى أشد راحة وأحسن سرور ..

أجلس لأقرأ طوال الوقت .. وأوسع دائرة قراءاتى القانونية ، تعرف أنى لم أكن أريد كلية التجارة .. وها هو ذا القدر هيأ لى فرصة دراسة الحقوق ..

هل رأيت يا متر ؟ مصائب قوم عند قوم فوائد ، لكن من هم هؤلاء القوم ؟ لا تهتم ..

كذلك العطلة الإجبارية الجميلة أعطتنى فرصة أن أتقرب إلى اللـه أكثر .. أعرف كم أنت مشغول فى دراستك .. لكن الحاج والحاجة و ( رضا ) الصغير و (ليلى) يريدون رؤيتك قريبًا ، ولو ليوم واحد ..

احضر إن استطعت فلا نريد الإثقال عليك ..

(مدحت)

آه يا ( مدحت ) يا نجمة فى الليل البهيم .. يا فرحة القلب الحزين ..

آه .. يا ليتنى من أصبت مُصابك . فليس لى أحباء يفزعون علىَ مثلك .. إذا كُنت مكانك ما كان أحد ليحزن علىَ غيرك .

ذهبت برغم اقتراب موعد الامتحانات .. برغم كل شيء ذهبت ، وهل لدى أغلى منه لألبى طلبه ؟!

إنه يدعونى باسم الجميع ..

قلبى المُنقبض يُخبرنى أن الحالة أصبحت شديدة السوء ..

لم تذيل ( ليلى ) الخطاب بأى خبر عن صحته ، وهذا معناه أن حالته شديدة السوء ..

كانت تعرف أنى سآتى سريعًا ..

لملمت ملابسى وذهبت .. أصبحت أكره هذه القرية المشئومة التى تأكل خيرة شبابها .. البيت الأبيض كفستان العرس ، هكذا كان ( مدحت ) يصفه ، بدا لى كالأكفان ..

دخلت ورأيته مسجى على الكنبة ، ووجهه أبيض شديد البياض .. بل خالٍ من أى لون ، كان إحساسى كل



مرة أراه أنها آخر مرةً ، قد أصبح فى هذه المرة يقينًا .. لقد دنت ساعته .. وبدا ذلك فى وجهه السابح فى ملكوت اللّه .....

وبرغم هذا قابلنى بالترحاب .. أحب أن يقوم ، رجوته ألا يفعل .. صمم ، أسندته بيدى ليجلس .. لم يعد ( مدحت ) بجسده القوى ووجهه الجميل .. تحول .. أصبح شفافًا .

جاء ( رضا ) يحبو ، ومن خلفه ( ليلى ) ونظرها نحو الأرض ، تتعثر فى فستانها الطويل ..

نادت الحاج والحاجة تبلغهم بحضورى ، نادت .. ولكن بصوت خفيض عميق ، ذكرنى بصوت أمى رحمها اللّه .. وجدت ( رضا ) بين يدى .

– ( رضا ) .. كلمنى ( مدحت ) .

– نعم يا ( مدحت ) .

– غدًا تتخرج ، وتفتح مكتب محاماة كبيرًا ، وأريد أن تجعل ( رضا ) يتدرب فى مكتبك بمجرد دخوله الجامعة ليدرس .. سأدخله كلية الحقوق ، أريد أن يدرس القانون ويعمل معك .. أنت عمه وأولى به .

– طبعًا يا ( مدحت ) .. إنه أغلى عندى منك .

- طبعًا اسمه على اسمك ، وسيسير فى طريقك .. يا لحسن حظه !!

قالها مبتسمًا ، لم تشب كلماته المرارة يومًا .

تدافعت الدموع لعينى ، لماذا هو يا رب ؟ لماذا ( مدحت ) ؟ عدت إلى نفسى واستغفرت الله .

جاء الحاج والحاجة ، أخرجونى من الحالة التى كُنت فيها .. لو تأخروا دقيقة لأجهشت بالبكاء .. كم كانوا لطفاء معى ..

قضينا يومًا جميلاً برغم توترى .. كان قلقى على ( مدحت ) زائدًا ، ولم أعرف أهو فعلاً حالته تسوء ، أم أنا أعصابى مشدودة ، وازداد توترًا مرة بعد مرة ..

ربما اقتراب الامتحانات هو السبب .. خاصة وهى آخر سنة ..



لا أدرى ..

* * *





- ٤ -

غدت مرة أخرى لحياتى ، وتساءلت :

- ما معنى الليسانس أو دراسة الحقوق ؟

بل ما جدوى الدراسة على الإطلاق ؟ أية دراسة ؟!

شعرت بأنى سأدخل فى حالة إحباط شديد ، ثم قابلتها ..

لا أدرى ما حظها معى ؟ أهو حظى الجيد ، أم حظها السيىء ؟ لكنها تلهينى على الأقل عما أنا فيه ..

قابلت أختى ، جعلت الأمر يبدو كصدفة ، لكنى واثق بأنها كانت تبحث عنى .. تقدمت مرتبكة .. وهى تقول :

- أهلاً يا أستاذ ( رضا ) .

- أهلاً ... ويا إلهى ! لقد نسيت اسمها ..

كيف ينسى المرء اسم أخته ؟! لكنها بالتأكيد قابلتنى فى ظروف لا أحسد عليها ، لم أبدِ عدم تذكرى لاسمها ، وكيف أفعل ؟ لم أقل أى شىء ، وتكلمت هى :

- ألا تريد معرفة كيف عرفت أنك أخى ؟

ـ أكيد بالصدفة ؟

أقفلت الموضوع ، بالتأكيد انعدام ذوق منى ، لكنى حقًا لم أكن مهتمًا كيف عرفتَ .. غيّرت الموضوع :

ـ كيف حال دراستك ؟

الحمد لله .

سكتنا للحظة لا نجد ما نقوله ، ثم نطقنا معًا ..

سكتَ وأومأت لها قائلاً :

ـ تفضلى ..

أجابت متلعثمة :

ـ ( خالد ) كان يريد أن يراك .

أجبتها متسائلاً :

ـ ( خالد ) ؟!

ارتسمت على وجهى علامات الجهل والدهشة ، فأنا لا أدرى من ( خالد ) هذا .

أجابت وهى تشير بيدها :

ـ ( خالد ) .

أدركت ما تعنيه .

ـ أخى .. ( خالد ) أخى .. ماذا أخبرته عنى .



لا أدرى أى غباء يحط علىّ عندما أكلمها !! ماذا تعرف هى عنى لتخبره ؟! على أى حال لم تردّ ..

فأكملت الحديث :

ـ كم عمره ؟

ـ ١٢ سنة .

ـ لماذا لم تحضريه معك ؟

ـ لم أكن أعرف أنى سأقابلك .

أجابت متلعثمة :

ـ كُنت أعرف أنها تكذب ، لا بد أنها كانت تخشى ألا أحب أن أقابله ، أو أن أسىء معاملته إذا فاجأتنى به .

ـ أحضريه معك المرة القادمة .. ليكن الإثنين القادم .. ما رأيك ؟

تهلل وجهها فرحًا وهى تقول :

ـ بكل سرور .

مرّت إحدى صديقاتها ونادتها :

ـ ( سهام ) .. فذهبت معها .

نعم اسمها ( سهام ) .. سأحرص على ألا أنساه ..

ومرت الأيام سريعًا لأقابلها ، والامتحانات على الأبواب ..

وأنت بـ ( خالد ) .. كان فى طولها تقريبًا ، إن لم يكن أطول ..

وابتسم لى ، كان أكثر جرأة من ( سهام ) ، وأعجبنى من أول نظرة ، ربما لأن ( سهام ) حدثته عنى ، وحدثتنى عنه .

- إنه رجل كبير يا ( سهام ) .

- قل لها يا أبيه ( رضا ) .

خرجت من فمه بتلقائية مُحببة ، وتحدثنا وتمازحنا وضحكنا ، ودعوتهم على الطعام والشراب فى كافتيريا الحقوق .. كان الحديث عامًا وممتعًا .

وفجأة تذكرت الامتحانات .

- متى امتحاناتك يا ( سهام ) ؟

- ستبدأ بعد غد .

- وجئتِ الكلية اليوم !!

ارتبكت .. تذكرت ، جاءت من أجل ميعادنا خصيصًا .. وعندما أخبرتها بذلك ارتبكت أكثر وكأنى ضبطتها بجريمة .

- أنا آسف يا (سهام ) .. فما زال هناك أسبوع على ميعاد امتحاناتى ، واعتقدت أن لديك محاضرة اليوم .



ردت متلعثمة :

- أبدًا لقد أحببت أن أعرفك بـ ( خالد ) ، فقد أراد أن يراك بشدة .. ولا أعرف متى سأستطيع رؤيتك مرة ثانية .

لديها حق ، تُرى هل سنستطيع التقابل مرة أخرى ؟ ولِمَ لا ؟ خرج الكلام من عقلى على لسانى .

- تعالىْ بعد الامتحانات وقابلينى آخر يوم أنتِ و (خالد ) ، وسأعطيك تليفون المكتب ، وبالتأكيد سنتقابل .

صدر عنى الكلام بتلقائية . أكيد أردت أن أراهم مرة ثانية .



ولِمَ لا .. لم أكن أحمل ضدهم أى شىء .

مرّت الأيام سريعًا ، وظهرت النتيجة ونجحت ، وبتقدير جيد جدًا .

وذهبت لأخبر ( مدحت ) .. وكلى خوف من أن أجده كما تركته أو أسوأ ، ولكنى وجدته أحسن ، ويبدو أكثر تماسكًا لنفسه .. و ( رضا ) الصغير كان قد شبّ قليلاً ، يتطور سريعًا هذا الفتى الصغير ..

ورجعت من القرية وأنا أسعد حالاً ، يومين فى الجنة

مع ( رضا ) والحاج والحاجة و ( ليلى ) .. وقبل كل هؤلاء ( مدحت ) صديقى الوحيد ..

عُدت متعللا بالتدريب والمكتب .. وعدم ترك ( فهمى ) وحده ..

عندما عُدت .. كُنت مشتاقًا لرؤيتك .. لم أكن أعرف كيف أعلن نجاحى ..

ومر يومان وكُنت قد كدت أنسى عندما تذكر الأستاذ ( خيرى ) وسألنى ، وسعد كثيرًا عندما أخبرته ، وأراد أن يحتفل بى ..

وبالصدفة اتصلت ( سهام ) فى نفس اليوم تُبارك لى .. رأت النتيجة وسعدت ..

أخبرتنى أنها هى أيضًا نجحت وأنها سألت عنى قبل ذلك ولم تجدنى ..

أسعدنى اتصالها ، وحددت معها ميعادًا لنلتقى .

وهنأنى كل من فى المكتب .. وأنتِ معهم بالطبع يا ( منال ) وبادلتك التهانى .

عندما أعود لهذه الأيام أستغرب تفكيرى فى موضوع الزواج ..

لكنى كُنت أشعر بفراغ هائل ، بحاجة للاستقرار



وتكوين أسرة ، كُنت أحتاج للشعور بأنى أنتمى لأسرة ، وأن هناك من يحتاج إلىَّ ويرغبنى ويهتم بأمرى .. إن هناك من ينتمى إلىَّ .

كُنت أريد أن ينتزعنى شىء من حزنى وغربتى ..

شىء يربطنى بحياتى الجديدة ، ويصهرنى فيها ، ويجعل عندى دافعًا لأستمر فيها ..

شىء يُشعرنى بجدوى الحياة ، ولم يكن شىء أجمل من ارتباطى بفتاة مثلك .

شغلنى خاطر .. هل من الممكن أن ترفضينى ؟ ولم أعرف كيف أفتح معك الكلام .. أتذكر مدى إحراجى وحيرتى وأنا أحادث الأستاذ ( خيرى ) فى الأمر ليُفاتحك ..

كُنت أود أن يحدد موعدًا مع والدك ، لكنه آثر أن يسألك رأيك ، وأن يُعطيك فرصة للتفكير أولاً .

وكان الحق معه .. لكنى كُنت متعجلاً ، هكذا أنا أتأنى فى أخذ القرار ، وما إن آخذه حتى أريد تنفيذه فورًا ..

كُنت سعيدًا لأن لدى حماسه لشىء ، وأن أمرًا ما يشغلنى .. لم آخذ رأى ( مدحت ) ..

قررت أن أفاجئهم بالأمر ليسعدوا ، خاصة وأن صحة ( مدحت ) كانت قد تحسنت فى الفترة الأخيرة ..

كما أنى خجلت أن أطلب من الحاج أن يأتى معى برغم أنى كنت واثقًا بأن الرجل سيُرحب .. لكننى أحسست أنى سأطلب شيئًا ليس من حقى .. أنى أستعير آباء الآخرين ..

كان حضور الأستاذ ( خيرى ) معى حلاً وسطًا ، وتركت للأستاذ ( خيرى ) الأمر .

كان التحاقى بالدراسات العليا أمرًا لا مفر منه .. حرب لا خيار لى فى خوضها لأسباب كثيرة .. ربما كان أبسطها رغبتى فى التفوق فى مجالى ، وأن أكون مؤهلاً للانفصال ، وفتح مكتب باسمي بأسرع ما يمكن .. وسعدت لأنى أرى ( سهام ) وأحيانًا ( خالد ) ..

وأخبرتها بعزمى على الارتباط ..

كانت سعيدة جدًا ..

بعد لحظات حملت عيناها أسئلة لا تحصى .. كانت حائرة وتخجل من سؤالى .. وفهمت ما يدور بذهنها .. هل سأخبر أبى ؟ وإن لم أفعل ، كيف سأجيب الأسئلة عن وجود أبى من عدمه .. كيف سأخبرهم أنى وحيد يتيم ؟



هل سأدعوهما للخطبة ، وكيف سأقدمها لعروسى وأهلها ؟

كانت « ألف مبارك » من فمها قلقة ومتسائلة عن وضعها فى حياتى .. أشفقت على ( سهام ) ببراءتها من الحيرة ، وأشفقت على نفسى كذلك ، فبمجرد رؤيتى لـ ( سهام ) خطرت فى بالى كل هذه التساؤلات بلا إجابات واضحة فى رأسى ..

رؤيتها استدعت إلى فكرى كل ما تعمدت تجاهله .

غيرت الموضوع وسألتها عن ( خالد ) .. كنت مشوقًا فعلاً للسؤال عن هذا الفتى اليافع .. تفكيرى فى (خالد ) .. مجرد ذكر اسمه جلب ابتسامة لشفتى ، انتقلت لشفتى ( سهام ) .. كانت تحب الحديث عن ( خالد ) وأنا كذلك .. لقد أخذ مكانه فى قلبى سريعًا ، ربما بأسرع مما اخترقته براءة (سهام ) ، ونضارتها .. أخبرتنى عن مدى إثارته ، واهتمامه بأن له أخا كبيرًا ..

تحيرت للحظة ، ثم قالت :

- إنه يسأل : لِمَ لا يستطيع أن يخبر أبى ؟

أحسست أنها هى من تسأل .. كانت كلمة أبى غريبة على أذنى ، وسألتها :

- ولماذا لا .. هل منعته ؟

- لا ، لكنه هو أحس ، خاصة وأنى لم أقل فى البيت .

كان من الواضح أنها تريد سؤالى .. وفهمت ، لكنى لم أعرف إجابة ، فلو أراد أن يبحث عنى ويعرفنى لفعل منذ زمن بعيد ، ولاستطاع إيجادى بسهولة ، أبسط ما فى الأمر كان تتبع أمرى فى المدرسة الثانوية ، أو كان سأل عنى قبل ذلك ..

الآن فى هذا الوقت المتأخر .. ماذا سأذهب لأقول له ؟ أعاتبه ؟ أرفضه ؟ هل هناك مجال لمثل هذه الأمور بيننا ؟ وماذا لو رفضنى هو ؟ إنه لم يردنى طفلاً ولا صبيًا .. فبالتأكيد بلغه نبأ وفاة والدتى ثم جدتى ، فأسرته تعيش فى بلدتنا .. ولكنه لم يسأل عنى .. ماذا سيفعل بى وأنا رجل على أعتاب أن أكون رب أسرة ، أنا ذاتى ..

ها هما ذان نجلاه .. شىء ما ينقصهما لا أدرى ما هو ..

كانا يبدوان مرفهين خاليين من العقد ، كانت بساطتهما وتلقائيتهما مُحبَبة .. أعتقد أننى التعقيد





الوحيد الذى اعترض حياتهما .. وإن كان أعطاهم شيئًا من الإثارة ، شيئًا ليفكروا فيه ..

كانت ( سهام ) تبدو مفتقدة لأذن واعية تسمعها وتوجهها ، وكان ( خالد ) يبدو مفتقدًا لرجل أكبر منه يتفهمه كفتى يشب سريعًا نحو المراهقة .

- أستاذ ( رضا ) ..

أفاقتنى ( سهام ) من شرودى ..

ابتسمت لها .. ما ذنبها هى فى همومى وانشغالاتى ؟ عدت أسرح .

- أنا آسفة .

اعتذرت فى إحراج .

- لماذا يا ( سهام ) ؟

- واضح أن بالك مشغول .

تجاهلتُ ما أرادت أن تشير إليه .. أفكر فى أن « أستاذ رضا » هذه غريبة منك ، هكذا أخبرتها أول ما خطر فى ذهنى .

- حضرتك أكبر منى وأنا ...

قاطعت حديثها :

- وأنتِ ماذا ؟

- لا أعرف ! هل من الممكن أن أقول لك يا أبيه .. كما يناديك ( خالد ) ؟

- بالتأكيد يا ( سهام ) ممكن .

فرحت بهذا الحل الوسط ، وكأنى أهديتها شيئًا قيمًا .

عندما عُدت إلى المكتب أخبرنى أستاذ ( خيرى ) بموافقتك المبدئية .. وبقدر ما أسعدنى الأمر بقدر ما حملنى بهموم ثقيلة على كتفى .. أمور كنت متجاهلها .. برغم أهميتها ، واستدعاها لعقلى رؤيتى لـ ( سهام ) ، وقررت أن أذهب إلى البلد لأبلغ ( مدحت ) بأمر الخطوبة ، ولآخذ رأيه فى أمر ذهابى لأبى ..

كان الأمر أصعب من أن أحسمه وحدى .. كنت أحتاج إلى ( مدحت ) ليرشدنى ويشد من أزرى فى القرار الذى سآخذه ..

كان علىّ أن أقرر ماذا سأقول .. هل أبدأ حياتى معك بكذبة ؟

وإذا ذكرت أنه متوفى فلن تعود لى رجعة فى الأمر ..

وإذا ذكرت أنه مسافر فإنه لا بد له من رجعة ..

أما إذا ذكرت الحقيقة ، فكيف سينظر لى أهلك ؟





وكيف ستنظرين لى أنتِ ؟ كيف سأتحمل نظراتك لى بعد أن أخبرك بهذا الأمر ؟

الطفل المكروه المحروم من حنان أبيه .. ولا يريده .. ربما أضخم الأمور ، ربما كنت أفعل ذلك وقتها ، لكنى كنت أكره هذا الموضوع ، وأخجل منه .

لم أعرف ماذا أفعل ، لم أكن أستطيع اللجوء لـ ( فهمى ) ، هو بهدوئه وخجله من ناحية ، وأنا بهدوئى وانطوائى من ناحية أخرى ، لم أستطع بناء صداقة معه تكفى لأسأله رأيه .

كان علىّ أن أذهب لسؤال ( مدحت ) ، كان الوحيد الذى أأتمنه على ما أريد ، وأثق برأيه ، أو بمعنى آخر كان الوحيد الذى سيسمعنى ، فأنا لا أعرف أحدًا ؛ لأن مجتمعى محدود جدًا بالمكتب ، وكلهم زملاء وحسب ، إلا الأستاذ ( خيرى ) ، ولم أحب أن أثقل عليه ، وفى الكلية لا أحد ، فقط ( سهام ) ، ولم تكن تصلح لإعطائى رأيًا فى هذا الشأن .. وأنتِ يا ( منال ) ، - وكان هذا من رابع المستحيلات - لا تسألينى لِمَ لم آتِ وأخبرك ، فأنا لم أجد فى نفسى الجرأة الكافية

لأخبرك برغبتى فى الاقتران بك ، ناهيك عن أن أبدأ أول حديث حقيقى لى معك بحكاية كهذه .

ذهبت لأرى ( مدحت ) ، وإن كنت فى قلق من أن أثقل عليه ، وكذلك فى شك من أنى أعرف كيف سيكون رأيه فى الموضوع .

كنت مهمومًا وأشعر بالإثارة والفرحة والحزن فى آن ..

قررت أن أبقى ثلاثة أيام .. وأغرانى أن ( مدحت ) بحال طيبة أن أكلمه ثانى يوم من مجيئى .. جلستُ معه وأخبرته .. كان صامتًا على عادته فى الأيام الأخيرة .. أنصت لى حتى أنهيت كل ما عندى ..

انفعلت وانفعلت .. ثم هدأت بعد أن أفرغت كل ما فى قلبى .. سنوات وأنا أحمل فى قلبى ألما مرًا .. سنوات وأنا أخفى هذا الأمر حتى عن نفسى .. دائمًا ما خدعت نفسى بأنى لا أهتم .

ربما لو استمرت أمى على قيد الحياة .. ربما لم أكن لأشعر بكل هذه المرارة .

سألنى ( مدحت ) :

ـ هل ستستمع لما سأقوله ؟



بالتأكيد يا ( مدحت ) وإلا لما سألتك من البداية .

ـ إذن سترضى بحكمى وتنفذه ؟

أومأت له برأسى .. كنت قد أجهدت نفسى بالتفكير .. وتنازعنى الأمر حتى كاد يمزق عقلى ..

أذهب له أو لا أذهب ؟

كان أهم ما فى الأمر وصية أمى ، لم أكن أريد أن أخالفها بعد موتها ، وأنا لم يكن عندى الفرصة أبدًا لأظهر لها امتنانى وحبى بالقدر الكافى ..

لم يمهلنى القدر لأرد لها بعضًا مما تحملته لأجلى ، لهذا لم أرد مخالفتها .. حتى جدتى لم تطلب منى أن أنسى وصية أمى برغم غضبها من أبى .. بل وكرهها له برغم شعورها بأنه قهر أمى .. لكنها كانت وصية ابنتها ..

آه يا أمى .. كيف سامحت أبى ؟ كيف كان قلبك بهذه السماحة ؟!

يبدو أننى ورثت غلظة القلب عن أبى .

لم تكن مسألة عقوقى لأبى تشغلنى .. هل أكون عاقًا له وهو قد عقنى من قبل أن أولد ؟

هجرنى وأنا بعد جنين فى رحم أمى ، وأنا مـا زلت فى رحم الغيب ، وعقنى رضيعًا وصبيًا ..

استرسلت فى أفكارى ، ولم يقـاطعنى ( مدحت ) .. تركنى أسرح بعيدًا عنه ، وفجأة دخل ( رضا ) الصغير فقطع الصمـت .. كنـا أصدقـاء ، كنـت أحضر لـه من ( الإسكندرية ) اللعب والحلوى .. وكـان هـو يتهلل لرؤيتى وللعبى معه ، أنزل ويركب على ظهرى ونـدور .. أقذفه فى الهواء وأتلقفه .. جرى إلىّ بخطوات صغيرة ووقف بين قدمىّ ..

ـ أنت تدلل ( رضا ) .

ـ هذا أمر بينى وبينه .. أتغار منه أم ماذا ؟

ـ غدًا يأتى لك طفل وتنساه .

ـ أبدًا ( مدحت ) لن يشغلنى عن ( رضا ) .

ابتسم ( مدحت ) وقال ضاحكًا :

ـ بسرعة أنجبت ولدًا اسميته ( مدحت ) ؟ ألا تنتظر حتى تتزوج أولاً ؟

ـ غدًا ترى .

كنت ألاعب (رضا) وأنا أحادث ( مدحت ) ، كان طفلاً جميلاً ومهذبًا ونظيفًا دائمًا ، وبطل الذكاء من عينيه ..



كان حلو الطبـاع ، وتمنيت أن أنجب طفلاً مثلـه ، ويشبا أصدقاء .

ـ أتعتقد أن أولادنا سيصبحون أصدقاء ؟

ـ بالتأكيد يا ( رضا ) ما داموا سيربون معًا .

ـ فعلاً .. ولم أنتبه وقتها لما يعنيه ( مدحت ) بهذا الكلام .

* * *



— ٥ —

نادانا أبو ( حامد ) لنأكل ، ولم يعد مجال للكلام .. كنت أريد لـ ( مدحت ) أن يبحث الأمر فى عقله .. كُنت أعرف أن ( رضا ) الصغير يجلس مع الحاج والحاجة حتى الظهر ليسليهما ، وحتى لا يشغل (ليلى) عن طلبات زوجها وأعمال البيت ، فطلبت أن آخذه لنتمشى ..

كان الوقت باكرًا ، وانطلقت به أمشى على سرعة خطوته قليلاً ، ثم أحمله وأضمه إلى صدرى ..

ما أجمل أن يحتوى المرء طفلاً فى صدره ..

وما أجمل أن يكون الإنسان فردًا فى عائلة .. سأنجب عشرة أولاد ، هكذا رمى بى خيالى الجامح فى تلك اللحظة ..

وتخيلت نفسى محاطًا بعشرة أطفال من كل سن ذكور وإناث ، آه .. لا تفزعى يا ( منال ) يكفينا ثلاثة أو أربعة .. أنا وأنتِ وحولنا كل هذا الكم من الأطفال .. أكيد سيعطوننا قدرًا من البهجة والحياة حولنا .



كُنت أعرف أنك تعدين وحيدة مثلى ، ( مدحت ) أيضًا يعد كذلك برغم أن له أربع أخوات بنات ، إلا أنهن متزوجات فى قرى بعيدة ، وكل واحدة منهن مشغولة بزوجها وأولادها .. لا تكاد تزور أمها وأباها إلا فيما ندر .. يبدو أنى سرحت فى القرية ومساحتها المنبسطة ، وتذكَّرت قريتى .. كانت حزينة هى الأخرى ومثقلة بهمومى ، وكُنت لا آنسُ فيها إلا لبيت واحد .

ارتفع صوت أذان الظهر سريعًا ، وتنبهت إلى أن ( رضا ) لابد وأنه تعب أو على الأقل شعر بالجوع .. نسيت أمر إطعامه ، ويجب أن أعود ليأكل ، لا بد أن الأطفال يشعرون بالجوع سريعًا فى هذه السن .

عندما عُدت طلب منى ( مدحت ) أن نتمشى معًا وقت العصر ..

ضحكت وأخبرته ممازحًا أنه يبدو وكأنه يغار من ( رضا ) الصغير بالفعل .

فقال : إنه يغار منه فعلاً ولمَ لا .. وضحك سعيدًا ، دائمًا بشوش الوجه ، مجرد ذكره الآن يجلب لوجهى ابتسامة ..

لم أدر هل يتحمل المشى ؟ على أى حال لن أحاول إرهاقه .. ذهبنا لنتمشى ، علق ذراعه بذراعى مستندًا إلىَّ ، ومشى ، كان ( مدحت ) طويلاً وعريضًا عنى ، ولكن المرض كان قد جعله نحيفًا ، بل وكأنه جعله أقصر ..

وسألنى عن ( فهمى ) فأخبرته أنه بخير ، ثم سألته :

ـ ألا يزورك ؟

ـ طبعًا كلما ينزل إلى البلد يمر علىَّ ويتابع معى .

ـ أعرف ذلك فهو يطمئن عليك باستمرار .

كُنت أعرف أن هذا الحديث العرضى مقدمة لحديث أطول وأهم ، ولكنه لم يتكلم ، وخشيت عليه من طول الطريق ، فاقترحت أن نعود ، وقبل دون معارضة على غير ما توقعت .. وعُدنا صامتين ..

كان (مدحت ) مشغول البال ، فيمَ كان يُفكر ؟ تُرى هل أثقلت عليه بمشكلتى ، أم أنه كان يفكّر فى أمر آخر ؟

وقبل أن نصل للمنزل .. أخبرنى أن هناك بيتًا بجوارهم .. معروضًا للبيع ، وأشار إليه ، كان فى ظهر منزلهم ..

ـ سعره ليس غاليًا يا ( رضا ) .





وفهمت أنه يريد منى أن أشتريه .. كان طلبًا ورجاءً ، ولم أكن أستطيع أن أرفض له طلبًا ..

برغم أنه تلزمنى مصاريف كثيرة ، ولكنه ( مدحت ) ، وسألته :

ـ أيقبلوا بالتقسيط ؟

فأخبرنى أنهم يقبلون بأى شىء ، كان ( مدحت ) يلح فى تلميحه دون أن يُصرح ، ولم تكن هذه عادته ..

كان فى الأيام الأخيرة يعرض الطلب من بعيد فقط .. لا أدرى لماذا ؟

كان هذا يؤلمنى ويجعلنى أكثر إصرارًا على تلبية ما يطلب ، ودخلنا المنزل .. شعرت بـ ( مدحت ) متعبًا ومشغول الذهن أكثر من العادة .

وأحسست أن كل هذا بسببى .. ماله ( مدحت ) وهمومى .. أما كفاه ما هو فيه ؟ اجتاحنى شعور فظيع بالذنب ، وفكّرت أن علىَّ ألا أثير هذا الموضوع ثانية ..

ومرّ هذا اليوم ، و ( مدحت ) مُعتكف فى حجرته ، ولم يخرج من حجرته فى الصباح أيضًا ، وكُنت سأسافر بعد العصر .. ولكنى عُدت أفكر فى أن أسافر فى

الحال ـ كى لا أعطى ( مدحت ) فرصة ليكلمنى ـ لكنى لم أستطع .

كيف أذهب دون أن أحييه .. وأنا لا أعرف متى سأستطيع أن أراه ثانية ؟!

وبينما أنا محتار لا أعرف ماذا أفعل ، بعث لى ( مدحت ) بـ ( ليلى ) ، تناديني ، جاءت و ( رضا ) الصغير يسير أمامها ، وذهبت وراءه ، دائمًا وجهها متجه للأرض .

دخلت لأرى ( مدحت ) وأنا مثقل بالهم بأكثر مما جئت .. دخلت وأنا أظن أنى سأراه متعبًا بشدة ، ولكنه ، ولعجبى الشديد ، كان يجلس فى الحجرة منشرح الصدر ، ويبدو بصحة جيدة برغم أنه كان لا يزال يبدو غامضًا ..

ضحك لى وقال :

ـ اجلس يا ( رضا ) تبدو كمن رأى شبحًا .

لم أنتبه ، لأنى واقف مسمرًا فى مكانى ، مندهش من حال ( مدحت ) .. ضحكت أنا الآخر وجلست .. سكتَ ، كان على ( مدحت ) أن يتكلم .. وتكلم عن البيت ، وعن أنه حدّث أبا ( حامد ) وهو بدوره حدّث صاحب البيت



ووافق على أن أدفع مقدمًا بسيطًا والباقى على أقساط .. بشرط أن أتركه يعيش فى البيت الشهور الستة الأولى ، ولم يكن لدىَّ مانع ، لكن هذا لم يكن ما يشغلنى ، برغم أنه كما يبدو كان ما يشغل ( مدحت ) .. فكّرت .. ربما يتهرب ( مدحت ) من إعطائى رأيًا ، وقررت ألا أسأله ..

نظرت فى ساعتى ، كان أمامى أقل من ساعة ، ثم أذهب لألحق بالقطار .

سألنى ( مدحت ) :

ـ ميعادك القريب ؟

أجبته مدافعًا عن نفسى :

ـ أبدًا ما زال أمامى وقت .

ـ زُرْه يا ( رضا ) .. نفّذ وصية والدتك .. إذ لم يكن برًا بأبيك ، فليكن برًا لأمك .. زره يا ( رضا ) وليكن ما يكون .. زره حتى لا تبقى عمرك تسأل نفسك وتقول : ربما لو ذهبت إليه لأحسن استقبالى أو لطردنى ، حتى لا تبقى العمر تشعر بالذنب لمخالفتك لأمك .

اذهب إليه حتى ولو لتخبره بما تشعر به .. بغضبك

منه ، بسؤالك كيف هانت عليه أمك .. وإن كانت هانت عليه ، فكيف هنت عليه أنت ، وكيف هان عليه ألا يسأل عنك كل هذه الفترة ، اسأله حتى تنهى هذا الأمر مرة واحدة وللأبد ، كى لا يشغل ذهنك ثانية وتقرر إما أن تدخله حياتك أو تخرجه منها تمامًا ولا تعود تُفكر فيه ..

أضىء النور لترى أن أشباح الماضى لاجود لها ، ولا شىء يخيف فيها .. تشجع يا ( رضا ) ولا تخش هذا اللقاء ، فإذا كان لأحد أن يقلق ويخاف ، فيجب أن يكون والدك وليس أنت .

هو من يجب أن ينشغل ، وألا تكون لديه الجرأة ليراك ، وليس أنت ..

وأنا فى القطار كُنت أفكر فى كلام ( مدحت ) ، أديره فى عقلى .. كان كلامه يخرج من عقلى على لسانه .. أشياء أخرى كثيرة دارت فى ذهنى .. لماذا اخترت ( الإسكندرية ) بالذات لإقامتى ؟

لم يخطر هذا الأمر لى من قبل .. ألأن أمى كانت تعيش هناك مع أبى ؟ لأنى أعرف احتمال أنه ما زال يعيش هناك ..



هل اخترتها على أمل أن ألقاه ، وليس لأسباب عملية محضة كما أقنعت نفسى ؟ أبى .. هذه الكلمة التى طالما رددتها وأنا طفل صغير ، ثم نسيتها مع الأيام أذكر أمى وحديثها عنه ..

كنت طفلًا صغيرًا لا أفقه شيئًا ، وكان اسم أبى مقترنًا بكل شىء حلو أو جديد ، وصورة أبى الصغيرة وكلامها عن أبى عندما سيأتى ويفعل هذا وهذا .. وكيف أنها ستشكو له منى .. برغم أنى أذكر أنى كُنت طفلًا هادئًا مطيعًا ..

كذلك أذكر غمغمات جدتى .. لابد أنكِ كنت تدعين عليه يا جدتى ، وتنكرين جحوده وغلظة قلبه وقسوته .. لابد أنك كنتِ ترفضين ما تقوله أمى وتكرهين ما تفعله .. وتسخرين منه .

كانت أمى تُعارضك لكن بوَهَن ، فلم تكن لتجرؤ على مجاهرتك .. وإلى أى حجة كانت ستستند ؟ كيف فاتنى فى صغرى أن أنتبه إلى أنى أنتظر غائبًا لا يأتى أبدًا ؟ قليلًا قليلًا أدركت .. وتنبهت إلى أن هذا الأب لم يكن سوى حكاية تتكلمين عنها ، وحدك يا أمى .

وحدك كنتِ تعذرينه وتفسحين له مكانًا فى حياتنا ، لم تنجحى فى نقل إحساسك بوجوده لى .. ليس كما

كُنت تودين على الأقل .. ربما نجحت فى إشعارى بعدم وجوده بمكانه الذى تركه بالحيز الذى كان عليه أن يشغله فى حياتى ..

لم تنجحى أبدًا فى إقناعى بما أردت يا أمى .. لم تنجحى فى إقناعى بوجود الغول الذى يأكل الأطفال أو الساحرة الطيبة التى تهبهم السعادة ..

تخطيت فى سنوات قليلة من عمرى كل هذه الخرافات ، الجميل منها والمرعب .

جزء صغير يبقى من بعض الحكايات .. جزء صغير فى نفسى بقى من حكاية أبى تلك .. من هذه الخرافة التى ظللتِ تحكى لى عنها ، حتى مللت وأنت لم تملى أبدًا ، حتى آخر لحظاتك كانت ذكراه على لسانك .

كان علىّ أن أذهب كما قال ( مدحت ) وأنهى هذه الحكاية كغيرها .. لا أستطيع أن أستمر فى حياتى وأمضى فيها بلا مُنغصات .

كما أنهيت قصة الغول لأمضى فى الطرق لا أخشى الوعورة أو الظلام ، وكما أنهيت قصص الساحرات الطيبات والكنوز ، لأنهى أملى بأن الحياة ستعطينى بلا ثمن ، وأقطع أملى فى السعادة التى ستأتينى من لا شىء ، بمجرد انتظارى ، ومعى أمانى تملأ قلبى الصغير



الأخضر .. لابد لكل أمر من مرحلة ، ويمضى لتبدأ مرحلة أخرى ..

معه حق ( مدحت ) عندما قال : أشباح الماضى .. يجب أن أضِىء النور لأرى الحقيقة ، حقيقة هذا الرجل مهما كانت ..

وجدت نفسى فى المحطة ، وصلت دون أن أشعر بالمسافة ؛ عُدت للمنزل لأنام ، وكلى تصميم على أن أول شىء سأفعله فى الصباح أن أذهب للكلية لأرى ( سهام ) وأسألها عن عنوانه لأزوره .

كُنت أعلم أن ( سهام ) ستفرح لذلك .. لكننى لم أكن متأكدًا أن نتيجة اللقاء ستُعجبها .. نمت باستغراقٍ على غير ما توقعت ، واستيقظت وكلى حماس ، كُنت أعرف أن ( سهام ) تذهب يوم السبت إلى الكلية ، وأنى سألقاها بإذن الله .. وبالفعل رأيتها وأخبرتها أنى أريد أن أرى أبى .. كانت سعيدة ، وصفقت بيديها كالأطفال ، وهى تقفز .

سألتنى بابتسامة عريضة :

- متى تريد رؤيته ؟

- بأسرع وقت ممكن .

- إذن هيا بنا الآن نذهب إليه فى مكتبه .

فجاءتنى ( سهام ) فأجبتها متمهلاً :

- ألا يجب أن نسأله أولاً ؟ ربما كان مشغولاً .

وأكملت محدثًا نفسى ، أو لا يريد مقابلتى .

وأجابتنى ( سهام ) :

- أبدًا ما دمت متعجلاً وتريد مقابلته فهيا بنا ، فأنا عندما أزوره فى المكتب يقابلنى فورًا .

حدثت نفسى : هذا عندما تزورينه أنتِ ، فقد كان دائمًا موجودًا لكِ ، أما أنا فشىء آخر ..

صمتت ( سهام ) .. كنت أريده أن يهيىء نفسه ..

لكن ( سهام ) باندفاعها وتلقائيتها المحببة صممت ..

لم تكن ما المشكلة .. ومعها حق ، فلن يفهم أحد ما المشكلة إلا أنا .

عمومًا أنا نفسى كنت متعجلاً بحق ، لأحسم الأمر .. حتى أزورك يا ( منال ) ، وأنا قد وضعت النقاط على الحروف .

ذهبنا فى سيارة ( سهام ) ، كانت سيارتها صغيرة وجميلة .. ركبت بسهولة ، وفتحت لى الباب لأركب ، وقادتها وكأنها تقود منذ نعومة أظفارها ، أعجبتنى



قيادتها السلسة .. مكتب أبى .. فيمَ يعمل هذا الرجل ؟

سألت ( سهام ) :

- ماذا يعمل ؟

من ؟!

سألتنى ( سهام ) ثم تداركت :

- أبى .. أبى رجل أعمال كبير .. مصانع وشركة استيراد وتصدير .

- لكن نشاطه الرئيسى فى أى شىء ؟

- الملابس والنسيج عمومًا .

كان المرور مزدحمًا .. لِمَ لم تسألنى عن دوافعى ؟

كانت سعيدة وكأنها تريد أن تقول : لقد نجحت ، أنا السبب .. أنا من فعلت هذا .. ربما تعتقد نفسها أصلحت ما بينى وبين أبى .. بعد كل هذه السنوات ..

آه من أحلام الفتيات الصغيرات ..

توقفت بالعربة فجأة .

سألتها مندهشًا :

- لِمَ لا نمر على ( خالد ) لنأخذه معنا ؟

- ( خالد ) !! لماذا ؟

- أكيد ( خالد ) سيُحب أن يأتى معنا .

ـ لماذا ؟!
سكتت ، فقلت ضاحكًا :
ـ احكى له عندما تعودين ، ويبدو أنها تقبلت هذا الحل .. ولهذا عادت تسير ..
وصلنا لإحدى العمارات الضخمة فى وسط البلد .. وجدت ( سهام ) بسهولة مكانًا لركن سيارتها فى المكان المخصص لذلك أمام العمارة .
أمسكت ( سهام ) بيدى وكادت تجرنى وهى تجرى .. ركبنا المصعد بعد تحية الأمن لها .. بالتأكيد يعرفونها جيدًا .. ضغطت زر المصعد ، يدها تعرف أين مكانه بلا مجهود ..
فتحت هى باب المصعد ، ودخلت الشركة بخطوات سريعة تعرف طريقها .. لم ألتفت للافتة الشركة أو للمكاتب أو الموظفين .. لم أر شيئًا ، كنت أسير خلف ( سهام ) فقط .
دخلنا مكتب السكرتير ، وقام على الفور مرحبًا ، أرادت أن تعرفنى له ..
ـ أبيه ( رضا ) .
شددت على يدها كى لا تُكمل .



سكتت ، ثم سألته :
ـ هل أبى مشغول ؟
فابتسم وقال :
ـ وإذا كان مشغولاً .. يا ( سهام ) هانم .. دقيقة واحدة وأدخلك ، عن إذنك ..
أجلستنى ( سهام ) من فورها على أحد الكراسى الوثيرة بحجرة الانتظار ، وظلت هى واقفة تتحرك هنا وهناك متعجلة هذا اللقاء ، وتجلس على حافة المكتب أمامى ، كانت كل حركة منها تدل على لهفتها ..
خرج السكرتير بعد لحظات ، خيل لى أنها ساعات .. أنا بقلقى و ( سهام ) بحركتها الدائبة من حولى ، ومع ذلك لم يبد علىّ أى شىء .
كُنت هادئًا بقدر ما أنا قلق وعصبى ، كُنت أريد أن ينتهى الأمر وحسب ، كان الأمر يشبه الأيام الأخيرة قبل الامتحان .. لم يعد شىء يهم ، وأشعر بالرغبة فى أن يأتى الامتحان وينتهى الأمر .. إن الانتظار مُملّ ومُتعب ، وأنا انتظرت هذا اللقاء .. أكثر من اللازم .

* * *

## - ٦ -

أصرت (سهام) على الدخول معى .. أو فى الحقيقة هى لم تصر ، ولكن طلبت فقط ..

ولم أكن فى موقف يسمح لى بالرفض أو التفكير ..

دخلت معى وعرفتنى له :

- أبيه (رضا) .

آه .. ليتك سبقتنى بالدخول يا (سهام) .. كان هذا كل ما تمنيته فى تلك اللحظة .. الرجل رحّب وسلّم ، لكن نظرة الجهل على وجهه كانت أوضح من أى شرح ..

أسقط فى يد (سهام) والتفت لها قائلاً :

- عن إذنك يا (سهام) .

كنت أريد أن أجنبها وأجنبه الحرج .. وخرجت (سهام) .. شعرت بخيبة أملها ، لعلها كانت تتوقع أن يأخذنى فى حضنه ، أو أن أجرى أنا إليه لأضمه فى صدرى ، أو أن يتبادر لذهنه بمجرد ذكر اسم (رضا) أنى ابنه .. الرجل - والحق يقال - استغرب مناداتها لى بأبيه ، ولديه حق ، فمن أين ظهرت فجأة ؟



جلست ومددت يدى له بكارت يحمل اسمى كمحامٍ تحت اسم المكتب الذى أعمل فيه ..

ألقى نظرة سريعة ، ولم يلفت نظره الاسم :

- أهلاً وسهلاً يا افندم .. أى خدمة أقدمها لك ؟

لعله ظننى الأخ الأكبر لإحدى صديقاتها .. (أى خدمة أقدمها لك) .. لم يمر وقت طويل منذ قلت هذه الكلمات لـ (سهام) ، وها هى ذى ترد إلىّ الآن .

- أبدًا يا افندم ، فقط أردت أن أتعرف حضرتك .

رن جرس التليفون مقاطعًا كلامى ، لم أسعد لشىء أكثر من هذا ..



رفع السماعة وهو يقول لى :

- بعد إذنك .

فعاجلته :

- اسمح لى ، واضح أن سيادتك مشغول .

- أبدًا .. أكيد هناك فرصة ثانية .

قالها وهو فى دهشة من أمره لهذا الضيف الغريب ، ثم بدأ المحادثة التليفونية .

خرجت .. وقفزت (سهام) واقفة بمجرد أن رأتنى ، وفى عينيها مئات التساؤلات .

خرجت .. فتبعتنى صائحة :

- ماذا حدث .. ماذا حدث يا أبيه .
- لم يحدث شيء .. ارجعى يا ( سهام ) .
نزلت معى وصممت على أن توصلنى .
- إلى أين ؟
أخبرتها أنى سأعود إلى البيت ، إلى أن يحين موعد المكتب .. أخبرتها بمكان المنزل وصلنا دون أن نتبادل كلمة واحدة ، ركنت العربة :
- هل من الممكن أن أصعد معك ؟
- لا يمكن يا ( سهام ) .. أولاً : لستُ فى حال تسمح ، ثانيًا : الكل يعرف أنى شاب مُغترب ووحيد ، ولن يكون شيئًا مقبولاً إذا صعدت لشقة عازب .
ابتسمت وأنا أقول المقطع الأخير .
ابتسمت ( سهام ) ، وقالت :
- معك حق .
قالتها دون أن تقتنع بالتأكيد ، فمنطقى لا يقنعها .. نحن أخ وأخت .. لكن أمام من ؟ ومن يعرف هذا الأمر ؟
لم تجادلنى ( سهام ) ، كانت تشعر بأن الأمور لم تسر على ما يُرام .
- هل سأراك مرة ثانية ؟





كان صوتها مهمومًا غير واثق .
- بالتأكيد يا ( سهام ) اتصلى بى وسنحدد ميعادًا .
بمجرد أن عدت للمنزل ، دخلت فى السرير لأنام ، ساعتين قبل موعد المكتب .. وعندما ذهبت للعمل كُنت سعيدًا لأن الأمر مرّ .
اتصل بى بالتليفون ، وأراد أن يكلمنى ، ولِمَ لا ؟
- آلو ..
- أهلاً يا ( رضا ) .
- أهلاً وسهلاً .
- أنا آسف يا بنى .. لكنك لم تخبرنى .
فكرت فى عقلى .. معه حق لِمَ لم أخبره ؟ وابتسمت .
- كيف حالك ؟
- الحمد لله .
- ( سهام ) حدثتنى بأمر معرفتكم الطويلة ، وقد أسعدنى الأمر .
- ( سهام ) فتاة ممتازة ، وكذلك ( خالد ) ولد ممتاز .
- أردت إخبارك بأنى تحت أمرك فى أى شىء تحتاج إليه .

- شكرًا جزيلاً ..
ولم أعرف كيف أكمل الكلام ..
توقف الحديث المتوتر ، ولم نعرف ماذا نقول ..
وقررت أن أنهى الصمت بنفسى .
- عن إذنك لأنهم يحتاجون التليفون .
- عِدنى أن تتصل بى إذا احتجت أى شىء .
- بالتأكيد .
- مع السلامة .
- مع السلامة .

وأغلقت التليفون .. أهذا هو .. أبى ؟!

كان الأمر مضحكًا ..

كيف تركت الأمر يشغلنى .. الرجل عملى لا يشعر بالذنب ، ولكنه مستعد لأى شىء أطلبه .. معه حق .. كم أطلب ؟

ذهبت للأستاذ ( خيرى ) لأسأله عن ردك النهائى ، وحسمت أمرى :

إذا سألوا فسأخبرهم أنى مقطوع من شجرة وحسب ، وليفهموا ما يريدون ..

وجاء الأستاذ ( خيرى ) بموافقتك ، وعرفت منه أنكِ



يتيمة ، تعيشين أنتِ ووالدتك وحسب ، ولكِ أخت لكنها متزوجة .. وحددت ميعادًا لأقابل أسرتك ، وجاء الأستاذ ( خيرى ) معى ، ومر الأمر بسلام ..

يبدو أنكِ كنت أخبرتهم يا ( منال ) بأنى وحيد بلا أسرة ، ولم تذكر أسرتك الأمر مراعاة لشعورى ..

وحددنا موعد الخطوبة ..

كانت حفلة صغيرة .. لم أخبر ( مدحت ) بها حتى لا يكلف نفسه مئونة الحضور هو و( ليلى ) والحاج والحاجة ..

كنت أعرف أن صحة ( مدحت ) لم تعد تتحمل مشقة السفر الطويل ، وقد يظن - لأنه تحسن - أنه يستطيع الحضور .



ودعوت ( سهام ) و ( خالد ) كانت أسرتك كلها موجودة وزملاؤنا فى المكتب .. وعرفتكِ بـ ( سهام ) و ( خالد ) دون أن أذكر صلة قرابتهم لى ، كنتِ مشغولة فى الحفلة مع أسرتك وصديقاتك حولك .

كانت ( سهام ) حزينة .. ذهبت إليها لأسألها ما لها ، أما ( خالد ) فكان يقفز هنا وهناك فى سعادة ..

كان يرتدى بدلة كاملة ويبدو كرجل صغير .

اقتربت من ( سهام ) وسألتها :

ـ مالك ؟
ابتسمت لى وأنكرت وجود أى شىء .
ـ لماذا أنتِ حزينة ؟ أجيبينى .
ـ اذهب لضيوفك يا أبيه .. عروسك تنظر إلينا .
لم أتحرك ، وصممت أن أعرف ماذا هناك .
ـ أيحزنك أنى لم أدعه ؟
ـ أبدًا .
ـ هل تشاجرتِ معه على الحضور إلىّ أو كذبت عليه ؟
ـ أبدًا .
ـ إذن ماذا يحزنك ؟
ـ لاشىء ، فقط كنت أتمنى أن نجتمع معًا .
فهمت .. أخبرته وهو لم يود أن يأتى .. فهمت أنها كانت تحمل أملاً فى أنها إذا أخبرته كان سيصمم على الحضور .. كم هى ساذجة وبريئة ..
أنا كنت واثقا بأنه لن يأتى ، إذا لم يكن ليتجنب الإحراج ، فلأنه غير مهتم ..
كانت حفلة الخطوبة هادئة وجميلة .. أليس كذلك يا ( منال ) ؟!
جهزنا للعرس سريعًا ، وفى أثناء ذلك جاءتنى



فرصة عمل طيبة فى النيابة ، واستشرت الأستاذ ( خيرى ) فشجعنى بشدة ، وراسلت ( مدحت ) أسأله رأيه ، وسألتك رأيك يا ( منال ) .. أتذكرين ؟
الكل شجعنى .. والمكتب شغلنى أن أترك الأستاذ ( خيرى ) بعد كل هذه السنين .. كان الرجل كريمًا معى لأقصى درجة ، وأعطانى من خبرته الكثير ، وعاملنى كأنى ابنه وأكثر .
فكرت فى أن أعمل معه مساءً .. وتحيرت وأنا مقبل على الزواج ، كيف سأوفق بين عملين وحياتى الجديدة كزوج ورب أسرة ؟!
لكنك يا ( منال ) كنت متفهمة وعقلك واعٍ .. كان علىّ أن أذهب لدعوة ( مدحت ) ، وبالفعل ذهبت ، كانت صحته طيبة مما أسعدنى ، لكنه ظل يتحدث عن البيت الجديد الذى بدأت فى دفع ثمنه ، وعن أنى مثل أخيه الكبير ، وأنه سيترك ( رضا ) أمانة فى عنقى ، وأنه يوصينى أن أجعل ( ليلى ) تستمر فى حياتها من بعده ، وكثير من الكلام الغريب على أذنى .
لم أستطع أن أفهم .. ماذا يعنى ؟ كان فى صحة طيبة ، والجميع فكر فى أن الأطباء أساءوا التقدير ،

فقبل كل شىء العمر من عند الله (سبحانه وتعالى) .. ما بالك يا ( مدحت ) .. كنت أود أن أشعر بالسعادة فى هذا اليوم .. مضى وقت طويل منذ شعرت بسعادة حقيقية كاملة .. أو ترى هل شعرت بها أبدًا ؟

وبرغم كل شىء أخبرته عن الزفاف ، كان سعيدًا وأخبرنى أن لاشىء سيجعله يفوت هذه المناسبة ، وعدت سريعًا .

وفى يوم الزفاف ، أتذكرين يا ( منال ) ؟ كدت أجن من القلق .. كنت ألتفت كل خمس دقائق لأنظر ناحية الباب .. لم يكن لى أحد غيرك يا ( مدحت ) يفرح لى بحق ، فقط الزملاء ، و ( سهام ) و ( خالد ) والأستاذ ( خيرى ) ، لكن أنت يا ( مدحت ) .. كدت أبكى كالأطفال من الحزن .

أتى (فهمى) ومعه الحاج ، وزاد قلقى عندما لم يأتِ ( مدحت ) .. أخبرونى أنه بصحة طيبة ، ولكنهم خشوا عليه من تغيير الجو ..

كانت ( الإسكندرية ) باردة ، كنا فى عز الشتاء .. ولكنه وعدنى !! لابد أنه مريض .. أقسموا ألف يمين





إنه بخير .. لكن أيمكن هذا ؟ أيكون بصحة طيبة ولا يأتى ؟!

كان ( مدحت ) قد تحسن كثيرًا فى الفترة الأخيرة حتى اعتقدت أنه قد شفى .. أتذكرين سفرى بعد ثلاثة أيام من الزفاف ؟ أخبرتك أنها مأمورية عاجلة .. كانت كذلك يا ( منال ) .. كان علىَّ أن أطمئن عليه .

ذهبت ورأيته بصحة طيبة ، فعاتبته على أنه لم يأتِ ، فأخبرنى أنه ينتظر صور الزفاف ، كما أن ( فهمى ) والحاج لم يتركا تفصيلة واحدة إلا وروواها .

مازحنى بأنى مللت الزواج سريعًا ، وعاتبنى لأنى تركتك فى ثالث يوم لأزوره . فأخبرته أنه هو السبب ، إنه أقلقنى عليه .

سعدت لأنه كان بخير ، وحملونى بخيرات كثيرة ، كثيرًا ما ضحكت من هؤلاء الذين يحملون أولادهم بتلال الطعام الريفى ، لكنى كنت سعيدًا بكل شىء أعدته الحاجة و ( ليلى ) .

مازحتنى على إسرافى فى هذا اليوم ، وأنت تعتقدين أنى اشتريت كل هذا ، هل كنت بخيلاً يا (منال) ؟ أعرف أنى كنت حريصًا ، لا أضع المال إلا فى مكانه

طول عمرى . هكذا تعلمت ، لكنى لم أكن لأبخل عليكِ بشىء يا ( منال ) .

كانت شبكتك قطعة من ذهب أمى ، كانت أعز ما أملك ، ومَن أعز منكِ لأهديها إياها ؟ كُنت أعرف أنها قديمة ، لكنك سعدت بها يا ( منال ) .. ولم تخجلينى ، كان أثاث بيتنا متواضعًا لكن جميل .. أنفقت كل ما أملك وقتها ، على الزواج والبيت الذى اشتريته فى البلد .

لكنى لم أقلق ، كنت سعيدًا جدًا حتى إننى لم أبال ، وابتسمت عندما رأيت باقة الورد الضخمة التى أرسلها أبى مع شيك بمبلغ كبير .. ما أكرمه .. كانت هدية ( سهام ) غاية فى الرقة والجمال .. كان زفافنا جميلاً لا ينقصه إلا ( مدحت ) .. لكنى عندما عُدت فى هذا اليوم من البلد بعد أن اطمأننت عليه ، كنت سعيدًا وفرحًا ، وكأنى استعدت هذا الجزء الناقص من سعادتى .. ( منال ) .. لقد أسعدتنى أيما سعادة .. رضيتِ بحالى وبأن تبدئى معى من الصفر .. رضيتِ بأن أعمل ليل نهار .. وكنتِ سعيدة لم تشتكى ولو مرة واحدة .



عشت السعادة التى كنت أظن أنى نسيتها ، وانشغلت فى حياتى الجديدة ، لم أزر ( مدحت ) بعدها لكنى كنت أراسله دومًا .. هو و ( فهمى ) حتى أتأكد من أنه بخير .. كُنت سعيدًا بحالته الطيبة وبأنه أحسن .. كأن هذا المرض كان مجرّد كابوس سخيف .. فاق ( مدحت ) كل التوقعات .. أخبرنى فى آخر خطاب بأنه نزل الحقل .. كُنت أبتسم مع كل كلمةٍ فى خطابه ، بل أضحك من حكاياته عن ( رضا ) .. كُنت كأنى أعيش معه فى كل تفاصيل حياته .. أصبحت خطاباتنا أطول وأطول ..

آه يا ( منال ) .. سنة .. سنة بأكملها من السعادة ، سعادة لم أحيها من قبل ، لم أخبرها سوى شهور قليلة مع ( مدحت ) قبل المرض ، ولكنها سعادة من نوع آخر .. سنة بأكملها أنا وأنتِ والعالم يضحك من حولنا ، سنة فى آخرها كُنت أضع خدى على بطنك أشعر بضربات وليدى .. كنتِ فى شهرك السابع وعاجلنى التلغراف .. مات .. مات .. لم يمهله القدر ساعات لأودعه .. نام ، وفى الصباح قاموا ليوقظوه فوجدوه قد مات ..

أسرعت بكل جهدى لألحق به .. وصلت القرية .. جريت إلى المنزل .. لم أجد أحدًا .. فقط أغراب .. إنهم فى المدافن .

صرخت :

ـ لا .. ألن أراه ؟ ألن أودعه ؟ ذهبت أجرى وأنا أشعر بأنى ممزق لألف قطعة ..

انتظروا لا تدفنوه قبل أن أراه .. كانوا قد أنزلوه القبر .. والرجل يهيل عليه التراب ، ألقيت بنفسى وقبل أن أصل للتراب تلقفونى .. اللعنة عليكم .. اتركونى ..

أردت أن أشعر بملمسه ، أن أحويه فى جسدى ، ولو بيننا أكوام التراب تلك .

لم أبكِ فقط ، كنت كالمجنون أهذى ، أخذنى أبو ( حامد ) فى صدره ، الأب المكلوم يحتضننى ، والأم الثكلى تربت على كتفى بيد واهنة .. مضى يحتوى اهتزازى وأنا أهذى : فقط اتركونى أراه .. لماذا ؟ لماذا ؟ فليجبنى أحد .. حرام .. حرام عليكم ..

آه يا ( منال ) آه .. آه .. نمت هناك فى فراشه محتضنًا ( رضا ) كأنى أحتضن نفسى ، أهدهدها ، أعزيها فى





مصابها ، أهيب بها أن تتماسك .. ( رضا ) قابع فى صدرى ساكنًا مفزوعًا ، لا يدرى شيئًا مما حوله ، يخاف أن يتكلم مندهشًا منى ومما أفعل ، وأنا أكاد لا أعى أنى أعتصره بين يدى ، أهدهده ، أكلمه .. أبكى ، أهلوس ..

لا أدرى هل انسل من بين يدى أو أخذوه ؟ لا أدرى . وضعوا علىّ غطاء ، ظنوا أنى نمت ، لكنى لم أفعل .. ظللت فى سريره ثلاثة أيام وثلاث ليال لا أستطيع إغماض جفنى .. لا أدرى ماذا أفعل .. ظللت مستلقيًا أهذى أو جالسًا أهدهد نفسى ، أحتضن ذكرى ( مدحت ) ، أحاول أن أملأ جسدى بملمسه ، بأثره فى فراشه ، برائحته التى تشيع فى الحجرة .

كُنت محمومًا ، حملتهم فوق طاقتهم .. جعلتهم يقلقون علىّ ويرعونى ، وهم أحق منى بهذا .. أنا من كان عليه القيام بهذا الدور .. فى آخر هذه الأيام كُنت قد انتهيت .. كُنت أكثر تحطيمًا من أن أحرك ساكنًا .

يكاد ( فهمى ) أن يكون قد حملنى .. لا أسندنى ، حتى أوصلنى إليك ، أتذكرين كيف كنت ؟ أخبرتكِ أنى

مريض .. أيامها كُنتِ متعبة بشدَة .. كانت أعصابك متوترة وتثورين لأتفه الأسباب .

واقترحتِ أن تذهبى لوالدتك ولم أرفض . كُنت أحتاج إلى أن أبقى وحدى قليلاً ..

شعرت أن علىّ أن أفعل شيئًا لـ ( رضا ) و ( ليلى ) وأبى ( حامد ) والحاجة .

كان ( مدحت ) قد وضعهم أمانة فى عُنقى ..

أردت منك أن تشاركينى ..

لكن كيف ؟!

* * *





## - ٧ -

لم أدرِ ماذا أفعل .. وقررت أن أذهب للبلد ؛ لأعيش قليلاً فى منزلى هناك .. كانت فكرة ما تكتمل فى ذهنى .

وهذه الفكرة كانت سبب كتابتى لهذه الرسالة .. ( منال ) .. لعلك عرفت ماذا سأقول من قبل أن أنطق ..

كان علىّ أن أتزوجها يا ( منال ) . نعم كان هذا واجبى ، وكان علىّ أن أؤديه بلا معنى ، لأنى زوج لأخرى تحمل طفلى ..

إنها أمانة فى عنقى ، لقد عرفت أن هذا ما أراده .. كانت هذه أمنيته الأخيرة قبل أن يفارقنا .

وكان علىّ أن أنفذ وصيته ... شعرت بأنها أكثر أهمية من كل شىء ؛ حتى من وصية أم لابنها وهى على فراش الموت ..

كنت أفكر فيك يا ( منال ) أنتِ من شغلتنى . أفكر فى وقع الخبر عليكِ .

كيف ستنظرين لى ؟ بعد أن تعرفى نيتى .

هل ستقدرين ما أنا فيـه ؟ لكن ألا أطلب المستحيل ؟ أى امرأة كانت تقدر هذا ؟

لهذا قصصت عليكِ القصة من بدايتها لعلك تعذرينني ...

ولكن أى عذر ستأخذينه لى ؟ فكرت فيكِ وفى ما ستقولينه ، وفى أى اتهامات ستكيلينها لى ....

ووضعتِ ( مدحت ) . ( مدحت ) يموت و ( مدحت ) يولد ، وما أقسى هذه الدنيا ، وما أقسى القدر على ( مدحت ) سواء هذا أو ذاك .. ( مدحت ) الذى قُطف وهو فى أوج شبابه .. و ( مدحت ) ابنى الذى يولد وأبوه يفكر فى الزواج بغير أمه .. فكرتُ فيك كثيرا وفى ( مدحت ) وفى أبى .. لا أدرى لمَ خطر لى أبى ؟ هل أنا مثله ؟

من شابه أباه فما ظلم .. أحقيقى هذا ؟ ألن أكون ظالمًا مثله . أرسل أبى شيكًا بمبلغ محترم مع ( سهام ) من أجل ( مدحت ) ، واتصل يهنئنى ..

وضعت الشيك الثانى مع الأول ..

كيف عاشت أمى مع هذا الرجل عشر سنوات كاملة !! أعتقد أنه كان سعيدًا بنفسه .





هل ستسامحنى أمى ؟ هل ستكون راضية عنى ؟ أظنها ستفعل .. فقد سامحتْ أبى أفلن تسامحنى ؟!

أردت أن أحدث أى شخص .. أن أحكى لشخص ما .. ولكنى لم أكن أعرف أحدًا سواكِ يا ( منال ) . أنتِ وأهل ( مدحت ) .. ولم يكن من المعقول أن ألجأ لأى منكم ، وفجأة .. خطرت ببالى ( سهام ) .

ولمَ لا ؟ فهى برغم كل شىء أختى . ثم إنه ليس عليها أن تبدى رأيًا ، يكفى أن تسمعنى .. ولكن كيف سأتصل بها ؟ لم أتصل بها أبدًا من قبل . كانت هى دائمًا تتصل وتسأل عنى ..

كان علىّ أن أنتظر إلى أن تتصل ، لكن هذا كان يحرق أعصابى .. فقررت أن أبحث فى الدليل عن رقم تليفون منزل أبى ، واتصلت بها ، ولم لا ؟ أنا أخوها على أى حال ، ولا شىء فى أن أطلبها .. وحددت موعدًا ...

كان ( مدحت ) لايزال بين يديكِ وليدًا . وبمجرد أن اكتملت الفكرة فى ذهنى حاصرتنى وضيقت الخناق علىّ .. وتحججتُ بالعمل والمشغولات والمسئوليات

الجديدة الملقاة على عاتقى لأختفى عن نظرك معظم الوقت .

لم أكن أعرف كيف أواجهك .. وشعرت بالذنب من مجرد تفكيرى فى أن أخونك فى تفكيرى بأخرى .

لكنى لم أكن أفكر فيها كـ ( ليلى ) .. كنت أفكر فيها كزوجة ( مدحت ) وأم ابنه .

سمعت منى ( سهام ) كل ما أردت قوله ، وضعت يدها على كتفى كأنها تربت عليه .

حملتها فوق طاقتها ، وهى ما تزال فى مقتبل عمرها لا تعرف مثل هذه المشكلات والأحزان . لم أكن أريد أن تبدى رأيًا . ماذا ستقول ؟ تزوج أو لا ؟ أخبر ( منال ) أو لا تخبرها ؟

أبدًا كان القرار فى ذهنى .. وكنت قد قررت إخبارك بهذه الرسالة ، وإن كنت لن أتزوجها فى الحال .. كان علىَّ أن أنتظر حتى يكبر ( مدحت ) قليلاً .. وتستردى أنتِ صحتك .

وحتى يمضى بعض الوقت على ( ليلى ) والحاج والحاجة ... كنت أعرف أنه لا يوجد وقت كافٍ ، ولكن يجب أن يمر بعض الوقت ..



( منال ) ... دائمًا . ما كُنتِ عاقلة وواعية ، هكذا أخبرت ( سهام ) .. لم تعرف كيف ترد .

سكتت طويلاً ثم قالت :

ـ افعل ما تراه صوابًا ، وليكن الله فى عونك أنت وزوجتك .

ماذا أقول يا ( منال ) ترى أتكملين القراءة بعد أن عرفتِ قرارى بالزواج من أخرى ؟

كانت هذه نهاية رسالتى إليكِ .. كنت سأضع كلمات أخيرة أسألك أن تفهمى ما أعانيه وأستسمحك . لكنك فجأة مرضتِ ، فقررت أن أرجئها حتى تشفى .

مالكِ يا حبيبتى ؟ ماذا أصابك ؟ أهذا وقت المرض ؟

أخذتُ أمشى على شاطئ البحر مسافة طويلة طويلة ؛ حتى أنهكنى المشى ، ثم جلست أفكر .. وماذا بعد فى هذه الحياة ؟ ماذا تريد منى ؟

هل تعتقدين يا ( منال ) أن هناك حلاً وأنا أهملته .. كيف أربى ( رضا ) ؟ وأهتم به .. وكيف أجعل ( ليلى ) تستمر فى حياتها ؟ وكيف أحافظ على مشاعر الحاج والحاجة ؟ أخبرينى أنتِ .

ألا تعتقدين بأنى تمنيت لو أن هناك حلاً آخر ..

كان علىَّ أن أذهب لزيارتك فى المستشفى .. والدتك كبيرة فى السن ، ولا تستطيع أن ترعى ( مدحت ) طويلاً وهو بهذا الصغر . أسرعى بالشفاء يا قرة عينى ، تماسكى .. أنتِ قوية يا ( منال ) ، وتستطيعين تخطى كل هذا ...

أنا أحتاج إليك بشدة .. لماذا اخترت هذا الوقت لتمرضى ؟ لماذا وأنا ضعيف أشعر بأنى مفكك .. كنت أحتاج لأن أفضى إليك بكل شىء ، ألقى بهمومى بين يديك لتغسليها . ما الذى حدث لك فجأة وبدون مقدمات ؟

أم أنى كنت أكثر انغلاقًا فى نفسى من أن ألاحظ أعصابك الثائرة وانطواءك ؟ كلها أمور طبيعية بعد الولادة . حذرنى منها الطبيب ، قليل من الاكتئاب وحسب .

أشعر أن الأمور فاقت احتمالى . ذهبت للبلد لأرمى نفسى فى صدر أبى ( حامد ) كما فعلت يوم مات ( مدحت ) ، هذه المرة بكيت وبكيت وبكيت .. كانت هذه ثانى مرة أذهب لمنزلى فى البلد ، وأنا بين هذه الجدران التى لم تحويك أبدًا ، والتى كنت أظن أنى





سأفاجئك بها يومًا .. فكرت .. كم هو غريب أن أجلس هنا وحيدًا ، وأنت هناك وحدك تصارعين الموت ؟

أنا هنا أفكر كم أخطأت فى حقك ، أتمنى لو أستطيع تعويضك لو أعطيكِ جزءًا من نفسى .. بعضًا .. بل كل عمرى .

أنتِ بين الحياة والموت ، ومجرد تفكيرى بذلك يسحب روحى منى ، ويتركنى جثة هامدة باردة الأوصال .. ( منال ) لا تموتى .. إن لم يكن من أجلى فمن أجل ( مدحت ) .. لا أريد أن يتربى يتيمًا مثلى .. أحسست أنى أكتب لكِ رسالة اعتذار بعذر غير مقبول .

رسالة أخشى أنك لن تقرئيها . وسيكون عزائى الوحيد فى ذلك أنك لم تعرفى بخيانتى لك .

كما لن تعرف أمى أنى خنت عهدها ـ أشعر بندم .. ندم قاتل وحزن شديد .

هل قتلتك مثل ما فعل أبى بأمى ؟ لا بد أنك كنتِ تعرفين بشكل أو بآخر ما انتويته ، مثلما عرفتْ هى .. لكنك لم تصارحينى .

( منال ) أشعر معك كأنى طفل .. طفل صغير مذنب ، ينظر لأمه بابتسامة ساذجة مُعتذرًا ينتظر العفو ..

لا ترحلى وتتركينى ، فأنا أحتاج إليك .. كيف سأواجه الحياة بعدك ؟!

.......

مددت يدى خاوية إلى القبر . بعد أن أودعته إياك .. أخذ أعز ما أملك ، وأنا .. بنفسى .. بيدى تلك التى أمدُها ، أتلمس أن تمدى يدك لى لأطمئن بملمسها ودفنها .. بيدى تلك ألقيت فوقك حفنة تراب ..

هذا القبر الذى انتزع منى ( مدحت ) دون أن أراه ، عاد ينتزع منى أغلى ما عندى ..

من يبقى لى بعدك أنت و ( مدحت ) ؟

كيف سأعيش فى تلك الحياة ؟ ولمن ؟

وضعت ( سهام ) ( مدحت ) بين يدى ، وكأنها سمعت صراخى الصامت ، وكان الحق معها ، نعم ( مدحت ) .. و ( رضا ) و ( ليلى ) والحاج والحاجة ..

( رضا ) يحتاج لأب .. نعم فأنا أعرف كيف هى الحياة بلا أب .. و ( مدحت ) يحتاج لأم فأنا أيضًا أعرف كيف هى الحياة بلا أم .. و ( ليلى ) تحتاج لكتف تسندها فى الحياة ، كى لا تموت كمدًا .. وأنا ..



ماذا أحتاج .. أحتاج لأن أكفر عن خطإ اقترفته بحقك يا ( منال ) .

جاء أبى فى العزاء ، جاء سريعًا وذهب سريعًا ووضع فى يدى شيكًا .. كان هذا أكثر مما أحتمل .. وضعت الشيكات الثلاثة فى ظرف وأعطيتها ( لسهام ) لتعيدها لأبى .

هل ظن أنى زرته ليمولنى فى كل مناسبة ؟

زواجى بشيك ..

ولادة ابنى شيك ..

وموت زوجتى شيك !!



هل هذا ما أحتاج إليه منه ؟! هل هذا ما كنت أفتقده ؟ نقود !! ماذا ستصنع لى ؟ أستُعيد أمى ، أم ( مدحت ) ، أو ستُعيدك أنتِ يا ( منال ) ؟ بماذا تفيدنى نقوده ، وأنا أبحث عن صدر لأرتمى فيه .. وأنا أرمى نفسى فى صدر أبى ( حامد ) .. هل ستعطينى النقود الصدر الحانى الذى أحتاج إليه ؟ الأذن التى تسمعنى ؟ العقل الذى ينصحنى ؟ الظهر الذى أستند إليه ؟!

طفلى الرضيع بين يدى جدته المرتعشتين .. كلما ذهبت أزورهم أحسست بالمرأة تنعى ابنتها ، تذكرنى

بجدتى وبكرهها لهذا الطفل ، الذى سرق الحياة من أمه ..
سرق الحياة منها وهى فى ريعان شبابها ..

ذهبت إلى البلد ، كان على أن أكلم أبا ( حامد ) وأشرح له كل شىء ..

كان على أن أحدثه ، وأن أشرح له كل شىء ..
إنها خطوة أساسية يجب أن أخطوها قبل أى شىء .

ترى هل كان لـ (ليلى) اختيار ؟ ترى لو كان بيدها أن تختار ، هل كانت تختارنى ؟ أنا من بين كل الرجال ؟ أكثر من يذكرها بالماضى ؟

ترى هل من الممكن أن نحيا سعداء معا فقط لأجل أبنائنا ، أم أننا سيكره بعضنا البعض ، ثم أنفسنا فى النهاية ؟ هل من الممكن أن نصل لكره الأبناء الذين وضعونا فى هذه التجربة ؟ التى لن أقول إن أطياف من أحببناهم تقف بيننا فيها .. بل سأقول تحيا معنا ..

لا أستطيع أن أجيب عن أى من هذه الأسئلة . لكن الأمر ليس أننا نريد أن ننسى ، أننا لم نفعل هذا لنضع الماضى وراءنا ، بل إننا فعلناه لأجل الماضى واحترامًا له .

لم تعُد هذه الرسالة تصلح لأن توجه لكِ يا ( منال ) ..



لكن كان علىّ أن أنهيها بشكل أو بآخر لأخاطبك وأخبرك ، أو لأخاطب ضميرى لا أدرى .

لكن هذه الرسالة لن تقبع فى درجى منتظرة (رضا) ليعرف ، أو ( مدحت ) ليسامحنى . يجب عليها أن تذهب أولاً لشخص آخر ، أعرف كم يتألم ، ربما أكثر منى ومن ( ليلى ) .

ربما استطاع أبو ( حامد ) أن يفهم ويقدر .. لكن الحاجة مهما أدركت ما أردناه جميعًا ، بل ما أراده (مدحت) فى المقام الأول ، مهما عرفته فإنها لم تكن لتقتنع به ، ومعها حق ..

لقد تركنا الأمور تجرى فى أعنتها ، وهى تعلم أننا لن نتزوج اليوم أو غدًا .. ولكن مجرد معرفتها بأننا سنتزوج فى النهاية يؤلمها ..

معها حق .. أنا أشعر بها .

لا أدرى هل سأجرؤ على أن أقرنها رسالتى تلك .. التى أرجو ألا أحتاج إلى أن أريها (لرضا) .. أو لـ (مدحت) .. على الأقل ليس دفاعًا عن نفسى ... ستحكى لهما بالتأكيد عن أب وأم آخرين .. لكنهما

صغيران .. أصغر من أن يفهما .. ربما بعد ذلك بسنين طويلة نجرؤ على أن نخبرهم ...

ترى هل سيسامحانى .. هل سيسامحنى ( رضا ) على أنى حاولت أخذ مكان أبيه ؟ هل سيسامحنى ( مدحت ) ، أم سيعتقد أنى قتلت أمه كمدًا ؟ هل سيكبران ليكرهانى أنا و ( ليلى ) ؟ فقط أرجو ألا يكره الواحد منهم الآخر .. ولكن لا ، لن يكرها بعضهما أبدًا .. أذكر قولك يا ( مدحت ) : ما داما سيربيان معًا فسيصبحان صديقين .. وكأنك كنت تدرى يا ( مدحت ) !!

( منال ) .. مهما كان ما سأمر به فيما بعد ، فيجب على أن أمر به .. إننا لا نختار كما نحب أن نوهم أنفسنا .. إن ما حدث لم يكن بترتيبى أو اختيارى ..

أشعر بالرهبة .. والخوف .. لكنى أرجو ألا أشعر بأنى أضحى .. و ( ليلى ) ترى كيف تشعر ؟ إنى أشعر بها ، لكنى لا أعرف كيف أعبر بالكلمات .. آه يا ( ليلى ) .

لم أكن لأتخيل أبدًا أن أبدأ خطابى محدثًا ( منال ) لأنهيه محدثًا إياكِ ، أنتِ يا من كنتِ أبعد من أن تمرى فى خيالى .. أقدس من أن أفكر فيكِ يومًا ..



آه يا زوجة أخى .. ماذا أفعل ؟! ماذا بيدى ؟! إن علينا الكثير لنفعله ، لنحيا حياة سعيدة ، إن لم يكن من أجلنا فمن أجل أطفالنا ..

إننا لا نسرق شيئًا ليس من حقنا .. مهما أحسسنا بذلك .. وإن كنا كذلك فلنشعر بهذه البلادة التى يشعر بها من هم مثل أبى . لا .. إننا لسنا مثله أبدًا .. أنا متأكد من هذا .

أنا وأنتِ و ( رضا ) و ( مدحت ) والحاج والحاجة و ( سهام ) و ( خالد ) .. ها هى ذى أسرتى التى لم أتمنها يومًا .. ولكنها أيضًا أسرة لم أحظ بها أبدًا .



* * *

( تمت بحمد الله )

رقم الإيداع:٧٨٤٨

# زهور

## سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

**السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل**



نى محمد أحمد منصور

# ليس من أجلى

لم يكن رضا يتخيل عندما بدأ رسالته

مخاطبًا منال أنه سينهيها محدثًا ليلى ..

تلك التى كانت أبعد من أن تمر فى خياله ..

شىء واحد يعرفه .. أن ما سيفعله

ليس من أجله ..

**80**



الثمن فى مصر ١٥٠ قرش

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم